وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 8 مـــــاي 1945 قالـــــمة

كلـــــية الــعلوم الإنـــــسانية والاجتماعية

قسم التـــــاريخ

العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين وأثارها على بلاد الشام (490- 690هـ/1096- 1291م)

مذكــرة مقــدمة لـــنيل شـــهادة المـــاستر في تاريخ وحضارة المشرق الاسلامي

إعداد الطالبة: إشراف الأستاذة:

بشرى بوشلاغم د أحلام يوسف

لجنة المناقشة

الأســـــــــتاذ	الرتـــــــبة	الصـــــفة	الجامـــــــعة
رابح ولاد الضياف	أستاذ التعليم العالي	رئيـــــــسا	جامعة 8 ماي 1945 قالمة
أحلام يوسف	أستاذ محاضر "أ"	مـشرفا ومقررا	جامعة 8 ماي 1945 قالمة
كمال بن مارس	أستاذ التعليم العالي	مـــناقشـــا	جامعة 8 ماي 1945 قالمة

السنة الجامعية: 1444-1445هـ الموافق ل 2023- 2024م

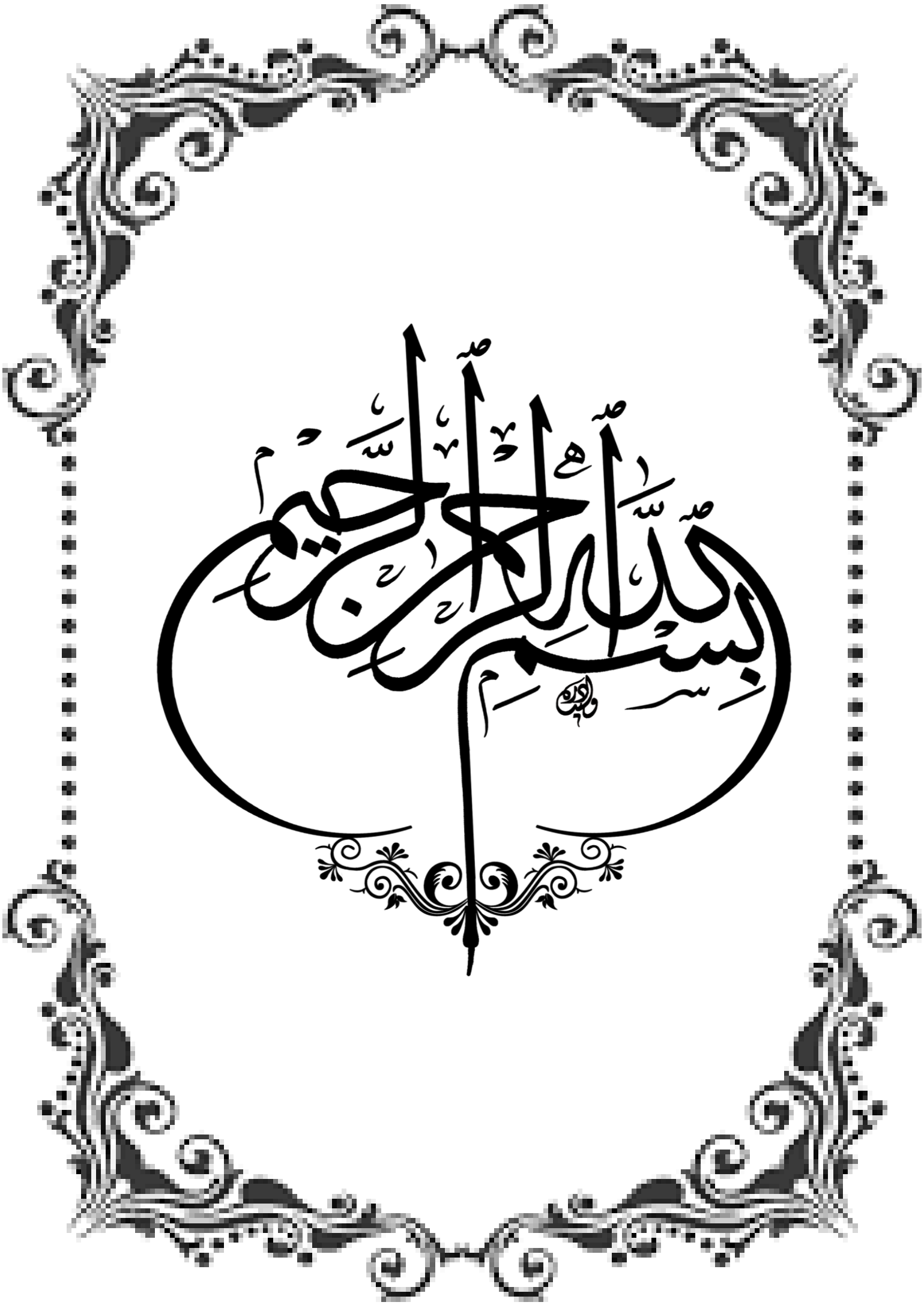
بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر والتقدير

قبل كل شيء اشكر الله عز وجل الذي وفقني على انجاز عملي هذا أما بعد:

- أتقدم بالشكر الجزيل لجميع من كان له الفضل في مساعدتي على انجاز بحثي
- ونخص العرفان للأستاذة المشرفة أحلام يوسف التي أفادتني كثيرا
- الشكر موصول لجميع أساتذة العلوم الإنسانية خاصة قسم التاريخ الذين درسوني في مراحل تعليمي بجامعة 8 ماي 1945م
- أسمى عبارات الشكر والتقدير للأستاذة اعضاء لجنة المناقشة
- كما اتقدم بالشكر الجزيل لطلاب الدكتوراه بجامعتنا الذين زودوني بالنصائح والمعلومات القيمة التي تخدم بحثي أيوب مشايرية، صلاح الدين سعيدي ،نوال زمالي

الإهداء

– الحمد لله وكفى والصلاة على الحبيب المصطفى واهله ومن وفى أما بعد:

– الحمد لله الدي وفقنا لتثمين هذه الخطوة في مسيرتنا الدراسية بمذكرتنا هده ثمرة الجهد والنجاح بفضله المهداة الى الوالدين الكريمين حفظهما الله وأدامهما نور دربي

– الى اخوتي علاء الدين،عبد الجليل وأختي دنيا ،الذين ساندوني ولايزالون

– الى رفيقات المشوار اللاتي قاسمنني اللحظات رعاهم الله ووفق خطاهم بسمة، عبيدة ،خلود ،أميرة

بشرى بوشلاغم

مقدمة

في نهاية القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي شهدت منطقة الشرق الأوسط موجة من الاستيطان التي نفذها الغرب الأوروبي والتي أصبحت تعرف باسم الحروب الصليبية، والتي حظيت باهتمام المؤرخين في معظم أنحاء العالم بسبب أحداثها ونتائجها التي كانت مجالا واسعا للدراسة والبحث، كونها شهدت العديد من المعارك والصراعات المختلفة من الشرق الأوسط بما في ذلك الشام، العراق، مصر، وصلت ذروتها سنة 690هـ/1291م، حيث انتهت بانتهاء وجود الصليبيين على أرض بلاد الشام بعد سقوط مدينة عكا، فقد كان الصراع الإسلامي الصليبي صراعا حضاريا لذلك فتأسيس الممالك اللاتينية في المنطقة العربية خلال الحروب الصليبية تسبب في تفاعل كبير بين العالم العربي والأوروبي على مختلف الأصعدة السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الدينية مما أثر بشكل كبير على تاريخ الجانبين وتطورهما المستقبلي.

وسنحاول من خلال هذه الدراسة تتبع العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين وآثارهما على بلاد الشام 490 هـ- 690 هـ/ 1096-1291م من خلال خطة تبرز مختلف جوانب الموضوع.

أولا: دواعي اختيار الموضوع

جاء اختيارنا لدراسة موضوع العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين وآثارها على بلاد الشام لعدة اعتبارات.

- محدودية دراسة الاقتصاد الصليبي مما أوجب علينا التعرف على هذا الجانب في حياة الصليبيين أثناء تواجدهم في بلاد الشام.
- حاجة الموضوع لمزيد من التعميق والدراسة.
- الرغبة في تقديم إضافة بحثية حتى إن كان بشكل متواضع حول العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين وآثارهما على بلاد الشام.

ثانيا: أهداف البحث

- التطرق إلى أوضاع المشرق الإسلامي والغرب المسيحي قبل الحركة الصليبية.

- توضيح العلاقات بين المسلمين والإفرنج وطبيعتها.
- إبراز المناطق الحدودية المشتركة وطرق إدارتها.
- بيان تداعيات العلاقات الاقتصادية بين الصليبيين والمسلمين على بلاد الشام.

ثالثا: حدود الدراسة

- **الحدود الموضوعية:** تناولت الدراسة العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين وآثارها على بلاد الشام مع التركيز على الجانب الاقتصادي.
- **الحدود الزمنية:** يتناول هذا البحث فترة زمنية تمتد من سنة 490 هجري الموافق لـ 1096 ميلادي إلى 690 هجري الموافق ل 1291 ميلادي.
- **الحدود المكانية:** تشمل الدراسة بلاد الشام

رابعا: إشكالية الدراسة

كيف أثرت العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين خلال فترة الحروب الصليبية على التطور الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام؟

وإلى أي مدى أسهمت العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين خلال فترة الحروب الصليبية في تحقيق الاستقرار السياسي والتنمية الاقتصادية في بلاد الشام؟

وللبحث في حيثيات الموضوع استدعت ضرورة طرح بعض التساؤلات التي تخدم طبيعة الموضوع:

- كيف ساهمت الأنشطة التجارية بين المسلمين والصليبيين في التقليل من حدة النزاعات العسكرية وتعزيز فترات السلام؟
- كيف أثرت التجارة وتبادل السلع الزراعية بين المسلمين والصليبيين على تطوير الزراعة في بلاد الشام؟
- كيف أثرت العلاقات الاقتصادية على الانتاج الصناعي المحلي مثل صناعة النسيج والأسلحة؟

- كيف ساهمت المصالح الاقتصادية في نشوب النزاعات أو التهدئة بين المسلمين والصليبيين؟
- كيف انعكست هذه العلاقات الاقتصادية على العادات والتقاليد في مجتمعات بلاد الشام؟

خامسا: المنهج المتبع

التزمت في هذه الدراسة توظيف المنهج التاريخي الذي يتضمن آليات السرد، التحليل، المقارنة، والذي يتركز على إبراز المعلومات وربطها ومقارنتها بما يشبهها في الوقت الحالي ذلك وصولا إلى النتائج المرجوة منها.

سادسا: خطة البحث

على ضوء المادة العلمية التي تمكنا من جمعها قمنا بمعالجة موضوع الدراسة في خطة بحث متكونة من ثلاث فصول وخاتمة، فقد جاءت هذه الخطة متضمنة لعناصر الموضوع على النحو الآتي:

- الفصل الأول عنوانه بلاد الشام وأوروبا قبل الحروب الصليبية، حيث تناولت فيه موقع بلاد الشام وحدوده، ثم بينت عنصر آخر لدراسة أوضاع الشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية، ثم ختمت الفصل بالحديث عن أوضاع الغرب الأوروبي قبل الحروب الصليبية.
- أما بالحديث عن الفصل الثاني فخصصته لنتطرق إلى التفاعل الاقتصادي بين الشرق والغرب الأوروبي، ويحتوي على أربعة عناصر، درسنا في العنصر الأول معاملات المالية، ثم وضحنا في العنصر التالي المنشآت الخدمية، والعنصر الثالث خصصته بالحديث عن المناطق الحدودية المشتركة
- والفصل الثالث عنوانه تداعيات الغزو الصليبي على بلاد الشام، وضعنا فيه أربعة عناصر تمثلت في التأثيرات الاقتصادية، العنصر الثاني يتحدث عن التأثيرات الاجتماعية، والعنصر الثالث بينت فيه التأثيرات الفكرية والثقافية أما العنصر الرابع خصصته بالحديث عن التأثيرات الدينية وختمت الفصل بالحديث عن التأثيرات الدينية،

ثم توصلت في الخاتمة إلى جملة من النتائج الهامة، كما حاولنا أن نلحق هذا العمل ببعض الملاحق التي تخدم موضوع البحث.

سابعا: عرض وتحليل لأهم مصادر البحث ومراجعه

أ. المصادر:

اعتمدت في دراستي هذه على مجموعة من المصادر والمراجع من أبرزها:

- **كتاب الرحلة:** المسماة تذكره الأخبار عن اتفاقات الأسفار بالإخبار لابن جبير (614هـ/1217م)، الذي يعتبر من أشهر الرحالة المسلمين، وتضمن كتابه الوصف الدقيق حول ما رآه في بلاد الشام خلال رحلته، فوضح جميع الجوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمنطقة فقد كان يسجل كل ما يراه في المنطقة، فتكلم بشكل مفصل عن العلاقات الاقتصادية بين الإفرنج والمسلمين كونه كان شاهد عيان للعادات والتقاليد الممارسة في ذلك الوقت، كما أشار إلى رواج التجارة بين الطرفين، لذلك فقط استفدت من هذا المصدر في الفصل الثاني بصفة خاصة كونه يتحدث عن الجانب الاقتصادي للعلاقات الصليبية مع المسلمين.
- **كتاب الاعتبار:** لأسامة بن منقذ الذي ولد في شيزر عام 488هـ/1095م، الذي بين من موقف المسلمين من الفرنج، كما تكمن أهمية هذا الكتاب في طبيعة علاقة أسامة بن منقذ مع صليبيين بسبب اتصاله المباشر بالصليبيين كونه كانت له علاقات ود وصداقة مع الفرنج، مما أتاح له الفرصة لمعرفة تفاصيل دقيقة عن حياتهم الاجتماعية، واستفدت من هذا المصدر في التعرف على طبيعة العلاقات بين الإفرنج والمسلمين، ومدى تأثر الطرفين ببعضهما في العادات والتقاليد، الطب، والنشاط الثقافي، وغيرهما من نواحي الحياة الاجتماعية.
- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** للكاتب أبي شامة الذي يشمل أهم الأحداث التي وقعت في عهد نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وعلاقاتهما بالفرنجة وببعضهما، ويعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التي استفدت منها في البحث

كون المؤلف فصل في توضيح الأحداث في تلك الفترة، ووجدت عرض لطبيعة العلاقات بين الطرفين.

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** للإمام شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي 821هـ/1418م، حيث قسم هذا الكتاب إلى أربعة عشر جزءا، يعتبر موسوعة تحدثت عن النظم الحضارية للعصور الوسطى، وقد اعتمدت على هذا الكتاب في الحديث عن المعاهدات بين المسلمين والصليبيين، وعن المناطق الحدودية المشتركة، وطبيعة النظام في هذه المناطق.

ب. **المراجع:**

1. كتاب العلاقات الاجتماعية والثقافية الاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية للكاتب زكي النقاش الذي قسم كتابه إلى ثلاث فصول وخاتمة، تحدث هذا الكتاب عن أوضاع بلاد الشام من الناحية الاجتماعية الاقتصادية والفكرية، وتأثير الحروب الصليبية على العرب والإفرنج، وبين تطور علاقاتهم واعتمدت على هذا المرجع في مختلف فصول البحث.
2. كتاب الاقتصاد الصليبي في الشام للكاتب حاتم عبد الرحمن الطحاوي، وقد أفادني هذا الكتاب في أغلب الدراسة.
3. كتاب المجتمع الإسلامي في بلاد الشام للكاتب أحمد رمضان يشتمل المرجع على الجوانب المهمة للحياة الاقتصادية والاجتماعية في الشام وأثر الحروب الصليبية فيها، وقد ساعدني كثيرا هذا الكتاب في وصف الآثار للعلاقات الاقتصادية للحروب الصليبية ذلك في الفصل الثالث.
4. كتاب الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب للكاتب عزيز سوريال عطية، يتحدث هذا الكتاب عن مراحل الحرب الحروب الصليبية، وعرض نتائج الحروب الصليبية، التجارة في العصور الوسطى في الشرق الأدنى، كما قارن بنين الثقافة العربية

والغرب في العصور الوسطى، وقد اعتمدت على هذا الكتاب في بحثي بشكل كبير وفي أغلب الفصول، فقط اعتمدت عليه في عرض العنصر الخاص بالمعاملات المالية.

5. كتاب النقود الصليبية في الشام ومصر للكاتب رأفت النبراوي، واعتمدت على هذا الكتاب في توضيح النقود الصليبية المقلدة من الدراهم الفاطمية والأيوبية.
6. كتاب العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين للمؤلف علي السيد علي، الذي أفادنا كثيرا في الفصل الثاني خاصة في الجانب المعاملات المالية.

ثامنا: الدراسات السابقة:

- دراسة محمود عبد الرحيم الطشاني تحت عنوان العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام(490-690هـ/ 1096-1291م)، رسالة ماجستير، تخصص تاريخ إسلامي، كلية الآداب، جامعة بنغازي، 2011-2012م، اهتمت هذه الدراسة بالتعرف على واقع الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، وتوضيح تأثير الحروب الصليبية في تكوين علاقات اقتصادية بين المسلمين والصليبيين خلال الفترة الممتدة من(490 690هـ/1096-1291م)، كما تبرز مدى استفادة الصليبيين من الحضارة الإسلامية وتأثرهم بها في كافة المجالات، وقد كانت لقاءا حضاريا مكن الغرب من النهوض من سباته الطويل.
- دراسة رشا عبد الفتاح محمد حسين، تحت عنوان الآثار الاجتماعية للحروب الصليبية دراسة على مجتمعات بلاد الشام، رسالة ماجستير، تخصص التاريخ الوسيط، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، 1427هـ/ 2006م، حاول الباحث من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على الجانب الاجتماعي لبلاد الشام، خاصة البنية السكانية وطبيعة العلاقات الاجتماعية في المجتمع متعدد الجنسيات، ويبرز لنا تأثر الجانب الاجتماعي والنظام القيمي الأخلاقي لبلاد الشام، كما عرض فصل لتأثر الأحوال الاقتصادية لبلاد الشام، كون الحروب الصليبية كانت أسلوب من أساليب الاحتكاك بين الغرب والشرق مما جعل الغرب يغيرون أفكارهم تجاه المسلمين.

تاسعا: صعوبات الدراسة

واجهت أثناء إعدادي هذا الدراسة بعض الصعوبات من أهمها:

- ضيق الوقت.
- حسب اطلاعي قلة الدراسات الأكاديمية التي تتطرق للحديث عن آثار ونتائج الحروب الصليبية.
- حسب اطلاعي قلة المصادر والمراجع المعربة.
- صعوبة جمع المادة العلمية كون أغلبية المصادر والمراجع اهتمت بالجانب الحربي ودرسوا الحملات الصليبية وأسبابها، ودوافعها، ونتائجها، وأهملوا الجانب الاقتصادي والاجتماعي بعض الشيء.

الفصل الأول:

بلاد الشام وأوروبا قبيل الحروب الصليبية

أولا: الموقع الجغرافي لبلاد الشام وحدوده.

ثانيا: أوضاع الشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية.

ثالثا: الغرب الأوروبي قبيل الحروب الصليبية.

أولا: الموقع الجغرافي لبلاد الشام وحدوده:

1. تسميتها:

استخدم العرب في الجنوب تسمية الشام لتضم جميع الاقاليم الشمالية في البلاد العربية[1]، وقد اختلف المؤرخون حول اشتقاق اسم الشام فتشير المصادر المعاصرة إلى أنها: سميت بذلك لأن قوما من كنعان بن حازم خرجوا عن التفريق فتشاءموا مواليها أي اخذوا ذات الشمال، فسميت الشام لذلك[2].

ويذهب بعض أصحاب السند القديم أن أصل تسمية الشام نسبة إلى سام ابن نوح عليه السلام الذي يعتقد أنه أول من استقر فيها وتم تغيير الحرف السين إلى شين لتمييزها عن اللفظ العجمي[3].

وقد ذكر ياقوت الحموي[4] قصصا كثيرة في تفسير تسميتها بالشام فيقول: "سميت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض، فشهت بالشامات".

ويرى آخرون ان سبب تسميتها بالشام مرتبط بتنوع ألوان ترابها حيث يعلم أن بعض تربتها تتميز بألوان الأبيض والأسود والأحمر وأيضا الأصفر مع تغيير بدرجات الألوان من الفاتح إلى الداكن[5]، وقيل أيضا أنه سمي شاما لأنه يقع على شمال الكعبة والشام لغة الشمال[6]، كما يجوز في اسم الشام إما التذكير أو التأنيث والمشهور منها التذكير[7].

(1) عفيف البهسني، الشام الحضارة دراسة تاريخية، وزارة الثقافة، ط1، دمشق، 1986، ص 24.
(2) البدري أبي البقاء عبد الله، نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، ط1، بيروت، 1980، ص 11.
(3) حسين عطوان، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموين دار الجيل، ط1، بيروت، 1987، ص 19.
(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م، ج1، ص 312.
(5) البدري، المصدر السابق، ص 12.
(6) البكري ، المسالك والممالك، تح: جمال طلبة، دار الكتاب العلمية، ط1، لبنان، 1424هـ/2003م، ج1، ص 33.
(7) ياقوت الحموي، المصدر السابق،ج 1،ص 314.

2. حدودها:

وبالحديث عن الحدود الطبيعية لبلاد الشام فقد كانت تمتلك أهمية استراتيجية كبيرة للعرب، سواء في الفترة الجاهلية أو الإسلامية فتشمل الشام اليوم فلسطين وسوريا، باستثناء بعض المناطق مثل: البصرة، والكوفة، التي تقع في العراق تاريخيا[1]، وللتعرف على الموقع الجغرافي الدقيق لبلاد الشام، يتطلب الأمر الرجوع إلى كتب الرحالة والدراسات الجغرافية التاريخية لتحديد الحدود الجغرافية بشكل صحيح وثابت.

بناء على وصف المقدسي، يمكن تصوير الموقع الجغرافي لبلاد الشام على أنه يبدأ من السفوح الجبلية لجبال طوروس، ثم يمتد جنوبا إلى ما وراء خليج الإسكندرية بجهة أرض الروم ويمتد الموقع من الغرب إلى السويدية وجبل خنزير حيث بلاد الأرمن، وينتهي الشام على ضفة نهر الفرات ويمتد إلى الشرق ليشمل العراق[2]، ويشير مصطلح الشام إلى المنطقة التي تطل على البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) غربا، وعلى البادية من أيلة إلى الفرات شرقا يحدها من الجهة الشمالية بلاد آسيا الصغرى ومن الجهة الجنوبية مصر وتيه بني إسرائيل تنتهي حدودها جنوبا مع مصر في منطقة رفح[3]، وقيل أن معدل طول الشام يصل نحو ألف كيلو متر وعرضها نحو مائة وخمسين كيلو متر ومساحتها تبلغ 183 ألف كيلو متر مربع، ومن الصعب الحكم على أصول السكان في الشام وتعين أو من نزلها من القبائل[4].

وبالحديث عن مدن الشام فأهمها كانت: حلب، حماة، حمص، دمشق بيت المقدس وفي الساحل أنطاكية، طرابلس عكا، صور وعسقلان[5]، وقد قسمت الشام لخمسة أقسام

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، دمشق، 1343هـ/1925م، ج1، ص 219.

(2) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1ص 151

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996، ص 153.

(4) محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 17.

(5) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 312.

وهي فلسطين، الأردن، حمص، دمشق قنسرين[1]، وشملت ثغورها المناطق التالية: المصيصة، طرطوس، أدنه، أنطاكية، وجميع العواصم من مرعش والحدث وبطرس والبلقاء[2].

واحتوت بلاد الشام على العديد من الأنهار مثل نهر الفرات، الذي يعتبر أعظم الأنهار وأول ابتدائه من شمال مدينة أرزن الروم وشرقيها ثم يأخذ إلى قرب ملطية ويتجه شرقا ويتجاوز قلعة الروم من الشمال والشرق ثم يسير إلى البيرة جنوبا[3]، كما تتواجد ببلاد الشام مجموعة من الهضاب الحاجزة منها العالية في الجنوب في إقليم طبرية منها هضبة اليهودية وهضبة الأردن هذه الأخيرة التي تتوفر على مسالك وأغوار تتجه إلى مصر[4].

ثانيا: الشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية:

عرفت المنطقة العربية في هذه الفترة انقساما سياسيا واضحا يتجلى في تفشي النزاع بين الكيانات السياسية في تلك المدة كما تنوعت بين الخلافة العباسية في بغداد في مصر والسلطنة السلجوقية في بلاد فارس إضافة إلى قوى أخرى محلية[5].

أي أنها تراوحت بين التفكك والتصارع بين القوى السياسية والمصطلح المتنازع فكانت بحالة ضعف وانقسام، مما أدى إلى عجز الجموع الإسلامية عن مواجهة العدوان الصليبي في بداية الهجوم[6].

(1) البكري، المصدر السابق، ج2، ص 33.

(2) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 312.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، دار الكتاب أحدوية، القاهرة، 1332هـ/1914م، ج4، ص 49.

(4) نجدت خماش، الشام في صدر الإسلام من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية (دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية)، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1987، ص 42.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح: خليل مؤمون شيعا، دار المعرفة، ط1، بيروت، 2004، ج 8،ص129_131

(6) وفاء جوني، الحياة الإدارية والسياسية في الإمارات الفرنجية الصليبية في بلاد الشام، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، 1041هـ/1919م، ص 14.

وبالحديث عن مصر فقد كانت تسيطر عليها الدولة الفاطمية العبيدية التي سيطرت على مصر سنة 358هـ وظلت مسيطرة عليها قرابة قرنين من الزمن[1]، فقد كانت الدولة الفاطمية تزدهر وتنعم بالاستقرار السياسي كما كانت تمتلك جيشا قويا بالتماس نفوذها في المنطقة إضافة إلى التسامح الديني والحماية التي تقدمها للمسيحيين واليهود[2].

لكن منذ سنة 359هـ/969م حاول الفاطميون السيطرة على ممتلكات الخلافة العباسية كما وسعوا نفوذهم على أجزاء كبيرة من الشام لكنهم واجهوا سياسة داخلية وخارجية مما أدى غلى ضعف دولتهم وتقليص قدرتها على مواجهة التحديات العديدة كالفتن الواقعة بين الأتراك والعبيد نتج عنها انهزام العبيد وتزايد قوة الأتراك وتطاولهم على الخليفة المستنصر بالله فعمدوا إلى محاصرته وأخذوا جميع أمواله سنة 460هـ/1067م[3].

مثلما حدثت مجاعات سنة 457- 463هـ/1064- 1070م مما أحدث اضطرابات وفتن داخلية أضعفت الدولة الفاطمية[4]، ووقع ما يعرف سنوات الشدة والتي سميت هكذا لكثرة الموت وقسوتها كما أدت الحرب الأهلية إلى استنزاف طاقات وإمكانيات الدولة الفاطمية التي اشتد فيها الخلاف والاضطراب في الحياة السياسية وكثرت عوامل الضعف فأشرفت الدولة الفاطمية على الانهيار[5]، ثم تسلم الأفضل بن بدر الجمالي[6] الوزارة بعد

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، تح: علي بشرى، دار إحياء التراث العربي، ط4، بيروت، 1998، ج 1ص 111- 266.

(2) محمود محمد الحويري، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، دار المعارف، ط1، القاهرة، ص 15.

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة للفاطميين الخلفا، تح: محمد علمي محمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971، ص 200، 275.

(4) ابن ميسر، المنتقي من أخبار مصر، انتقاه: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تح: أيمن فؤاد سيد، المعهد العالي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، ص 36.

(5) علي محمد علي عودة الغامدي، بلاد الشام قبل الغزو الصليبي 643 -491هـ/1070- 1098م، مذكره لنيل شهاده ماجستير، جامعه أم القرى، مكة المكرمة، 1402هـ/1982م، ص 44.

(6) الافضل بن بدر الجمالي :هو احمد بن الأفضل شاهناه احمد بن بدر الجمالي ،ابي علي وزير الحافظ الفاطمي صاحب مصر ،استوزره سنة 524هـ وكان داهية فتغلب على الملك وحجر على الحافظ ورد على المصادرين أموالهم فحمد له المصريون ذلك واظهر مذهب الاثني عشرية وبعض الكتب اسمه على السكة انظر،www tarajim com

وفاة والده، وبعد ذلك بقليل توفي الخليفة المستنصر بالله[1]، فقام الأفضل بوضع الخليفة المستعلي وهو طفل صغير على عرش الخلافة ولقبه بالمستعلي بالله وأبعد أخوه الأكبر نزار فأدى إلى ظهور جماعة عرفت بالنزارية وهم من المبايعين لنزار بن المستنصر مما أدى إلى الاهتمامات في الدولة الفاطمية فصعت هذه الأخيرة وأصبحت غير قادرة على مواجهة التحديات الخانقة فالحلفاء في ذلك الوقت كانوا صغار السن مما جعل الوزراء المستبدون الحكم[2].

وبالحديث عن الدولة العباسية فقد كانت تعاني من تدهور السلطنة الداخلية بسبب الصراعات على العرش وبين الأعراف والقبائل مما أضعف الحكم المركزي وأضرب بأمن الدولة[3].

وقد ظهرت الحركات الانفصالية داخل الدولة العباسية مما أدت إلى تكوين وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة العباسية كالدولة البويهية التي كانت تخالف الوجهة السياسية للخلافة العباسية وقد تعرض الحكم السلجوقي في العراق إلى المؤامرات الفاطمية غير أن القائمين عليه تغلبوا عليها[4]، كما أدت وفاة ملكشاه[5] سنة 485هـ/1092م إلى تنازع أبناءه الأربعة حول السلطة والذي بدوره ساهم في سوء الأحرار وازدواج السلطة في العراق بين عباسيين سلاجقة والذي يعتبر جانب أساسيا من عوامل الضعف[6].

---

(1) الخليفة المستنصر بالله :هو امير المؤمنين أبوجعفر منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله احمد بن المستضيء بأمر الله حسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي العباسي البغدادي واقف المستنصرية التي لا نظير لها انظر ،الذهبي ،سير اعلام النبلاء ص155

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1935م،ج ،ص142،

(3) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر،ط1، بيروت، ص 187.

(4) المصدر نفسه، ص19.

(5) ملكشاه: هو أبو الفتح ملكشاه بن الب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب بجلال الدولة لما توفي ابوه كان ملكشاه ولي الامر من بعده بوصية والده وتحليف الامراء والاجناد على طاعته وكان من احسن الملوك سيرة كونه كان يلقب بالسلطان العادل وكان منصورا في الحروب ومغرما بالعمائر وحفر العديد من الأنهار ;انظر الذهبي ,سير أعلام النبلاء تح شعيب الارنووط مؤسسة الرسالة ،ج9،ص54

(6) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص11.

كما أقدم السلاجقة على إسقاط الحكم البويهي الذي يهدد كيان الدولة العباسية مع استغلاله هذا القصر للخليفة العباسي وإن المتتبع لحركة توسيع السلاجقة يكتشف لأن نواياهم كانت متجهة نحو الاستيلاء على العراق والدولة العباسية، كما بلغ الأمر ذروته حين أسر السلطان السلجوقي الخليفة العباسي مغادرة بغداد وهذا الجو من الصراعات الداخلية لم يكن من المعقول أن نجد في بغداد تكتلا يستطيع الوقوف في وجه الغزو الصليبي[1].

وبالحديث عن بلاد الشام التي كانت تنقسم إلى عدة وحدات سياسية أهمها إمارة حلب في الشمال وفلسطين في الجنوب وبينهما دمشق حلب التي كانت نقطة اتصال بين الشام وآسيا الصغرى والجزيرة وشمال العراق[2]، وقد كانت تشهد العديد من الصراعات والتقلبات السياسية المستمرة بين الحكام، ورغم محاولات بعض الزعماء في الإمارة للاستقرار الوضع كان الصراعات المستمرة بين الأسرة المحلية أدت في النهاية إلى ضعف حلب وعجزها عن مواجهة الصليبيين[3].

ولطالما اعتبرت الزراعة أفضل مصدر للدخل تليها الصناعة ثم التجارة[4]، فقد كانت الزراعة واسعة الانتشار في كافه الأقطار الإسلامية الملائمة لها، وتعد مصر واحدة من أغنى الدول العربية ذلك بفضل نهر النيل الذي يجتاز أراضيها مما ساهم في تحسين جودة التربة لجعلها صالحة للزراعة على طول مسار النهر[5]، وحسب ما ذكره المسعودي أن

(1) عبد النعيم محمد حسنين، إيران والعراق في العصر السلجوقي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1402ه/1982م، ص18، 19.

(2) درويش النخيلي، فتح الفاطميين للشام، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1979م، ص60_61

(3) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات الإنسانية بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث، ط1، 1999/ 2000م، ص56.

(4) مونتجومري وات، فضل الإسلام على الحضارة العربية، تر: حسين أحمد أمين، دار إشراق، ط1، بيروت، 1983، ص36.

(5) السيوطي حسن، المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة إدارة الوطن، مصر، 1295م، ج1، ص103.

الحدائق في مصر كانت تمتد من أسوان في الجنوب إلى رشيد في الشمال[1]، وهذا دليل واضح على ثراء مصر وخصوبة أراضيها.

أشار الرحالة ناصر خسرو عند زيارته لمصر إلى مدى وفرة المزروعات حيث تم استزراع محاصيل الصيف والشتاء والربيع معا مرجعا ذلك إلى اتساع الأراضي في المنطقة فيقول "رأيت في يوم واحد هذه الفواكه والرياحين والورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والترنج والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكي والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليج (الإهليج)، والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والبصل والثوم والجزر والبنجر إضافة إلى العنب والنخيل[2].

كما كانت الحبوب أكثر غلال مصر خاصة القمح والشعير والحمص والفول والعدس إضافة إلى قصب السكر والبصل والغثاء واللفت الفحص والأرز والقطن كلها بفضل نهر النيل الذي جعل منها دولة زراعية بامتياز[3].

أما أرض بلاد الشام فلطالما اشتهرت بخصوبة وصلاحية أراضيها الزراعية[4] وخاصة فلسطين التي كانت من أهم أسباب الغزو الصليبي لبلاد الشام حيث توفرت فيها العديد من الحقول والأشجار خاصة أشجار التين التي ازدهرت فيها والتي أعجب بها النصارى أثناء زيارتهم فلسطين فنقلوا ما شاهدوا إلى مجتمعاتهم هذا ما كان واضحا في الوصف البابوي لأرض فلسطين حيث أطلقوا عليها أرض اللبن والعسل[5]، وبالحديث عن أهم المحاصيل الزراعية لأرض الشام نذكر القمح الذي اعتبر المحصول الرئيسي للبلاد ويليه الشعير الذي

(1) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار القطر، ط5، 1973، ج1، ص152.

(2) ناصر علوي خسرو، سفرنامه، تر: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج1، ص103.

(3) أبي سعيد البرادعي، التهذيب في اختصار المدونة، ت: محمد الأمين ولد محمد سالم بن الشيخ، دار البحوث للدراسات الإسلامية والتراث، ط1، 1999م، ج2، ص51.

(4) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج6، ص283.

(5) قاسم عبده قاسم ،ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، 1990، ص16.

اعتبر في المرتبة الثانية من الأهمية في المنطقة، إضافة إلى المحاصيل التالية: الزيتون، التين، أشجار الكروم، قصب السكر، القطن، أشجار النخيل، والعديد من المحاصيل فقد كانت بلاد الشام وافرة الخيارات وذلك يعود كما ذكرنا سابقا إلى خصوبة تربتها[1].

وبالحديث عن مدينة العراق فقد شكل كل من نهري دجلة والفرات عمودا فقريا لحضارتها على مر السنين، فقط تميزت بخصوبة التربة كما يشير أبو إسحاق الإصطخري في كتابه المسالك والممالك

لك إلى أن أنهار البصرة تزيد عن تزيد عن مائة وعشرين ألف نهر تجري بها المراكب أي تتوفر على جداول كبيرة تجري بها المراكب[2].

وقد كانت العراق تملك ما يعرف بسواد العراق الذي سمى هكذا لكثرة الخضرة في نخيله الترع والزرع[3]، كما توفرت هذه المدينة على بساتين من النخيل التي تفض مساحات شاسعة من أراضي المدن العراقية من بينها بغداد التي اعتبرت من أكثر المدن زراعة للنخيل[4].

إضافة إلى زراعة النخيل فقد اشتهر العراق بزراعة الأرز أيضا كون العراق يتوفر على المياه المساعدة على زراعته[5]، إضافة إلى زراعة شجر النارنج والأتروج[6] والتين[7] والكروم[8].

وبالحديث عن الجانب الصناعي والتجاري فقد اعتبر القرن الثالث الهجري/ التاسع ميلادي الذي أحدث انقلابا كبيرا في مكانة التجار داخل المجتمع الإسلامي، حيث لم يكن

(1) حازم أحمد سليم الحلاق، الأوضاع الاجتماعية والعلمية والدينية والاقتصادية والسياسية للمشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية (345-490هـ/945-1097م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب، قسم التاريخ، الجامعة الإسلامية غزة، 1436هـ- 2014م، ص92، 93، 94.

(2) الإصطخري، المسالك والممالك، مطبعة ابريل ، ليدن ،1927،ج1، ص32، 33 ،34

(3) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص12.

(4) الإصطخري ،المصدر السابق ،ج1 ،ص32، 33

(5) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1،ص451،450.

(6) المسعودي، المصدر السابق،ج 1،ص167.

(7) الإصطخري، المصدر السابق ج1،ص34.

(8) المصدر نفسه، ج 1،ص34

ينظر إلى التجار بعين التقدير، ثم أصبحت التجارة مظهر من مظاهر أبهة الإسلام[1]، وبالحديث عن بلاد الشام فقد كانت تشتهر تجاريا في تلك الفترة وازدهرت التجارة فيها كما تنوعت البضائع المنتجة في الأرض الشامية وتفردت كل مدينة بنوع معين من المنتجات تباع في مختلف أسواق الدولة الإسلامية[2].

وقد كان من بين أهم المنتجات في تلك الفترة: الجبن، القطن، الزبيب، المرايا، قدور القناديل، الإبر والثياب والحبال والسبح، وقضم قريش[3]، الكاغد[4]، السكر، الخرز، الزجاج المخروط، الأشنان[5]، الملابن[6]، القطين، الزيت المزير، الورق الفاخر[7]، الحصير، صناعة السفن التي كانت تعرف باسم جودي... الخ.

كما تزخر الشام بالعديد من المعادن المختلفة فجبال بيروت وحلب وعمان احتوت على الحديد، أما فلسطين احتوت على مقاطع حجارة بيض، وفي بيت جبريل وجد الرخام، أما الأغوار فقد احتوت على الكبريت، كما توفر الملح بكثرة في البحر الميت[8]، أما بالنسبة لجهة البادية احتوت على أربع معادن: الغاز، المغرة، الطين الذي يعمل منه البوانق التي

(1) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري أو عصر النهضة في الإسلام، تر: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5،ج1، ص371،37.

(2) آدم ميتز، المرجع السابق، ج2، ص371

(3) قضم قريش: شجر التنوب يستخدم للعلاج، أنظر: الرازي الحاوي في الطب، تح: هيثم خليفة طعيمي، دار إحياء التراث العربي، ط1، لبنان، بيروت، 2002م، ج6، ص63.

(4) الكاغد: نوع من أنواع الورق يستخدم في الكتابة، أنظر: الحموي، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1991م، ج4، ص353

(5) الأشنان: تغسل به الأيدي على اثر الطعام، انظر: الأزهري، تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 2001م، ج4، ص121.

(6) الملبن المحلب هما خشبتان تستعملان للاستسقاء والمحاصل تسمى الملابن، أنظر: أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس، المحيط في اللغة، تح: الشيخ محمد حسين آل ياسين، عالم الكتب، ط1، بيروت، لبنان، 1994، ص327.

(7) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص48.

(8) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980م، ج1، ص167، 168.

يسبك فيها الحديد، والرمل الذي في حلب يعمل منه الزجاج[1]، أما بالنسبة لمصر فقد كان القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي فترة ازدهار للصناعة والتجارة بشكل كبير ويعود ذلك للأمن والاستقرار الذي عم في البلاد تحت حكم الدولة العبيدية وارتفعت ثروة التجار بشكل لافت دون الخوف من الخصومات أو ظلم يمكن أن يلحق بهم[2]، كما اعتبرت المدن المصرية في عصر الدولة الفاطمية مركزا مهما للصناعات والحرف المتنوعة[3]، كما تميز الاقتصاد المصري بمجموعة من الصناعات الفريدة التي لم تكن موجودة في مكان آخر بل اختصت بها مصر فقط[4]، من بينها صناعة النسيج فاشتهرت بعض المدن المصرية بإنتاج أنواع راقية من المنسوجات التي كانت تنسب إليها مثل: العمامات الملونة وأثواب النساء التي لا ينسج مثلها في أي مكان آخر، كما يصنعون أستار هوادج الجمال ولبود سروج الخيل الخاصة بالسلطان[5].

وقد كانت معظم منتجات مصر تلقى رواجا في جميع البلدان كونها ذات جودة وإتقان وقد تميزت بتصدير العديد من منتوجاتها الزراعية عبر موانئها فاعتبرت مصر بلد التجارة[6]، فمصر في تلك الحقبة كانت تتمتع بموارد كبيرة جعلتها من أغنى الدول الإسلامية[7].

وينبغي التأكيد على الاهتمام الكبير الذي أبداه الخلفاء العباسيون تجاه مدينة بغداد، فقد نظموا وجلبوا إليها جمعا هائلا من أصحاب الحرف والصناعات المتميزين، فقد قاموا باستقدام الحرفيين من مصر ليعملوا في صناعة الورق، ومن البصرة لتطوير صناعة الزجاج والخزف والحصير، وأيضا من الكوفة للمساهمة في صناعة الخزف والأدوات المطلية، ولم يقتصر اهتمامهم على ذلك فقط بل استدعوا الحرفيين وصناعا من جميع أنحاء البلاد لتعزيز

(1) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص42.

(2) عطا الله أخضر أحمد، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، ص91.

(3) المرجع نفسه، ص77، 79.

(4) اليعقوبي، البلدان، مطبعه بريل، ليدن المحروسة، 1890م، ص42.

(5) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص77، 79.

(6) المقدسي، المصدر السابق، ج1،ص185.

(7) حازم أحمد سليم الحلاق، المرجع السابق، ص109.

الاقتصاد المحلي وتطوير الصناعات في بغداد[1]، وبفضل هذا التنوع الحرفي والصناعي الذي ادخلوه إلى بغداد تمكنت المدينة من بناء أسواق حيوية متنوعة وأصبحت مركزا مهما للتجارة وبفضل الدعم القوي من الخلفاء العباسيين، زادت التجارة برا وبحرا مما جعل تجارتها أكثر ازدهار ورواجا من تجارة البلدان التي ينحدر منها التجار فتمثلت هذه الفترة كونها محورية في تاريخ بغداد فقد نجحت المدينة في تحقيق الازدهار والتقدم الاقتصادي والثقافي بفضل التنوع والاستقطاب الذي أحدثته هذه الصناعات المتنوعة والمتميزة[2].

ثالثا: الغرب الأوروبي قبل الحروب الصليبية:

للتعرف على أحوال أوروبا قبيل الحروب الصليبية لابد أولا من التطرق لطبيعة العلاقة بين المسيحيين والمسلمين فتشير المصادر إلى أن العلاقة بينهم شهدت تقلبا بين السلم والحرب فقط أثرت بعوامل سياسية واجتماعية وثقافية لكون هذا التنوع والتعقيد أساس هذه العلاقة التاريخية[3].

ومن الواضح أن الحروب الصليبية قد شهدت اتصالا مباشرا بين المسلمين والأوروبيين والتي حملت مظاهر العداء وعدم التفاهم بينهما كما تؤثر الأفكار والتصورات السلبية التي قدمها بعض رجال الدين المسيحيين في ذلك الوقت بشأن المسلمين والإسلام[4] لكن رغم قوة المسلمين في تلك الفترة إلا أن الفرنج استطاعوا التغلب عليهم مما أدى إلى تعجب المؤرخ ابن تغري بردي من هذا فقال "والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف والجوع وعدم القوة حتى أنهم أكلوا الميتة وكانت عساكر الإسلام ... فكسر والمسلمين وفرقوا جمعهم"[5]، ولعل أن التنوع في القوى والأمراء والتحالفات السياسية في بلاد

(1) اليعقوبي، المصدر السابق، ص114.

(2) المصدر نفسه ،ص114.

(3) اديل سليمان محمود وهيبي واخرون ,العلاقات بين المسلمين والفرنج خلال فترة الحروب الصليبية ,مجلة كلية التربية ,جامعة الازهر ,العدد168,ج4,ابريل ,2016,ص555

(4) المرجع نفسه ج4,ص556

(5) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص147.

المشرق في تلك الفترة كما قد يكون هذا الانقسام وعدم التوحيد له أثر في مقاومة المسلمين للاستيلاء الصليبي وعدم القدرة على التصدي لهم فقد استولوا على المدن الشامية الواحدة تلو الأخرى[1].

كما لم تقتصر العلاقات السلمية بين الفرنج والمسلمين على عقد الهدن والمعاهدات فقط بل تعدى ذلك قيام ملوك الفرنج باستخدام المسلمين في بلاطهم[2]، وخير دليل على ذلك ما يرويه ابن جبير عن الملك عليان الفرنجي في قوله: "أن ملكهم غليان شأن عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وهو كثير الثقة بالمسلمين حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين"[3].

وقد اشتهرت أيضا بينهم العلاقات الدبلوماسية أيضا ودليل ذلك ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي[4] أثناء حصار قلعة شقيف أرنون[5] من حسن استقبال صاحب قلعة شقيف واحترامه وإكرامه على الرغم من كراهية المسلمين إلا أنهم كانوا يتعاملون معهم بروح الإسلام مع الصليبيين ويظهر ذلك عند مجيء امرأة فرنجية لصلاح تشتكي له وقوع ابنتها بين أيدي اللصوص المسلمين، فما كان منه إلا أن اشترى ابنتها من السوق العسكري وأعادها لها[6].

ومن الواضح أن الأوضاع الأوروبية قبيل الحروب الصليبية تميزت بتفرد البابوية والإمبراطورية بدور الزعامة، حيث كان البابا يحتل مكانة الزعيم في العالم وعلى اثر ذلك

---

(1) ابن تغري بردي، ج5، ص148.

(2) المصدر نفسه،ج5،ص140

(3) ابن جبير، الرحلة المسماة تذكرة الاخبار عن اتفاقات الاسفار بيروت دار الكتاب اللبناني 1970 ص254

(4) صلاح الدين الأيوبي: هو يوسف بن أيوب الملقب بالملك الناصر تنحدر اصوله من العائلات الكردية ولد في بلاد ما وراء النهرين تحديدا تكريت بين العامين (1137و1138م)وتوفي في دمشق عام 1193م كان شابا مهتما بالعلم والدين لا تبدو عليه امارات الميول العسكرية ثم اصبح قائد من اعظم قادة المسلمين واكثرهم شهرة وكانتكل من مصر سوريا فلسطين اليمن تحت راية الدولة الايوبية في عهده 'انظر www mawdoo3.com

(5)قلعة شفيق ارنون : قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من ارض دمشق بينها وبين الساحل. انظر: ياقوت الحموي ،معجم البلدان، ج 3، ص403

(6) المصدر نفسه ج3,ص31

أصبحت الباباوية مسؤولة عن الدفاع عن المسلمين أي أنها كانت مؤسسة دينية ذات نفوذ سياسي[1].

فقد لعبت الباباوية دورا هاما في السياسة في فترة العصور الوسطى بفضل امتلاكها سلطة دينية وسياسية كبيرة حيث كان للبابا السلطة المطلقة في شؤون الكنيسة إضافة إلى الشؤون السياسية والدبلوماسية عن طريق صدور بيانات ومراسيم تؤثر على القرارات السياسية والقانونية في الدولة، وقد تضمنت هذه القرارات تعيين الحكام، تسوية النزاعات السياسية، توجيه الحروب المقدسة، تحديد الحدود الجغرافية، تأسيس تحالفات، إصدار مواثيق وشهادات دينية[2].

وفي القرن الخامس ميلادي سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية نتيجة الغزوات الجرمانية والضعف الاقتصادي والتحولات السياسية، في الواقع بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية تشكلت ممالك جديدة في أجزاء مختلفة من أوروبا بما في ذلك مملكة الفرنجة التي أسستها القبائل الجرمانية السليانية ومملكة القوط الغربية والشرقية ومملكة الفاندال وغيرها، وهذه الممالك لم تكن تشكل مكانا واحدا للإمبراطورية الرومانية كما شكلت هيئات سياسية واقتصادية مستقلة[3].

ومع تنامي الفوضى والاضطرابات الداخلية تعرضت الإمبراطورية الرومانية للانهيار النهائي في الغرب في عام 476 ميلادي[4].

(1) عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، تر: فيليب صابر سيف، دار الثقافة، ط2، ص35.

(2) عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص36.

(3) نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، ط2، 2000/1999م، ص8.

(4) السعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1986، ج1، ص341.

صحيح أن فكرة الحروب الصليبية ظهرت في البابوية خلال فتة حكم البابا جريجوري السابع (1073-1085م)[1]، والذي يعتبر من أبرز الشخصيات البابوية التي دعت إلى الحروب الصليبية كوسيلة لتحرير الأراضي المقدسة في الشرق الأوسط من بلاد المسلمين[2].

إلا أن معركة منزكرت التي وقعت سنة 463هـ_1071م كانت حدث تاريخ مهم في تركيا الحالية وقد واجهت القوات البيزنطية السلجوقية بقيادة السلطان ألب أرسلان[3]، فقد اعتبرت كارثة للإمبراطورية البيزنطية حيث تعرضت لهزيمة كبيرة وفقدت العديد من الجنود والضباط البارزين، هذه الهزيمة فتحت الباب أمام السلجوقيين للتواصل في الأراضي البيزنطية وفقدانها السيطرة على المناطق الشرقية هذه المعركة كانت لها أهمية في تاريخ المنطقة وتأثيرها على التوازنات السياسية والثقافية في الشرق[4].

قبل بداية الحروب الصليبية وبالضبط في القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي كانت أوروبا عبارة عن مناطق إقطاعية متخلفة ذات اقتصاد ضعيف وغير مستقر مقارنة مع العالم الإسلامي في تلك الفترة[5]، كما كان الفلاحون الأوروبيون يواجهون تحديات عديدة كونهم كانوا يعملون بشق الأنفس في إزالة الغابات وتجهيز الأراضي لزراعة المحاصيل التي تلبي احتياجات المجتمع الأوروبي[6]، إضافة إلى أن تجارة الموانئ الأوروبية كجنوة والبندقية

(1) جريجوري السابع: هو جريجوري هلدبراند ولد من ابوين ينتميان الى اسرة وضيعة في قرية سوفانو SOVANO الواقعة في مستنقعات تسكانيا وهو قديس وبابا الكنيسة الكاثوليكية تقلد البابوية في 22ابريل 1073الى غاية وفاته في 1085م انظر :ويليام جيمس ديورانت ,قصة الحضارة, تر زكي نجيب محمود, ,دار الجيل ,بيروت , ج 14ص396

(2) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب تجارية ثقافية صليبية، دار الثقافة، ط1، 1972م، ص35.

(3) ألب أرسلان: هو السلطان الكبير الملك العادل ابو الشجاعة الب أرسلان ,محمد السلطان جغري بك داوود ميكائيل ابن سلجوق ابن تقاق التركماني ,الغزي من عظماء ملوك الإسلام وابطالهم ,ملك بعد عمه طغول بك ,وكان عادلا سار في الناس سيرة حسنة ,كريما رحيما ,شفوق على الرعية رفيقا على الفقراء ,انظر :ابوعبد الله شمس الدين الذهبي , سير الاعلام والنبلاء ,ج17,ط11,مؤسسة الرسالة ,بيروت ,1996م,ص414.415

(4) حسين بن محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، 1983م، ص191.

(5) مصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية، مكتبة الإيمان، القاهرة، 1997، ص1.

(6) حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1999م، ص130.

لعبوا دورا هاما في التوسع التجاري والابتعاد عن السيطرة المسلمة على الشواطئ الأوروبية خلال العصور الوسطى واتصفوا بالروح الحيوية والحماس لاستكشاف أسواق جديدة وتطوير العلاقات التجارية[1].

وقد كان للطابع الريفي والمظهر الإقطاعي وجود قوي في أوروبا ودليل ذلك أن الزراعة كانت الوسيلة الرئيسية للعيش رغم أن الأراضي المزروعة كانت ضئيلة المساحة مقارنة بالمناطق البرية والغابات والأراضي البور التي كانت مرتعا للحيوانات المفترسة[2]، فقد كان الطابع الاقتصادي الجوهري في أوروبا اعتمد على النشاط الزراعي فقد كان الفلاح يعيش حالة فقر فأكواخهم كانت في حالة مزرية بنيت من جذوع الأشجار وفروعها وغطيت سقوفها وأراضيها بالطين والقشر، كما أن هذه الأكواخ تخلو من الأثاث ولا حتى نوافذ، أي حياة أدنى من حياة الحيوان الذي يعمل في الحقل، طعامه من إنتاج حقله وملابسه يصنعها من جلود الحيوانات وصوف أغنامه[3]، وكان الفلاح يأكل اللحم الطازج مرة واحدة في عيد المسيح ويحتفظ بما تبقى مقددا ليأكل منه طوال العام، حيث لم يكن يأمن على نفسه من الجوع في تلك الفترة بسبب تدهور الزراعة ونقص محصولهم الدائم والذي كان سببا في المجاعة[4].

شهدت أوروبا في السنوات العشرة التي سبقت الحروب الصليبية سلسلة من الفيضانات والمجاعات خاصة في شمال فرنسا وغرب ألمانيا[5]، وقد عرفت حقبة مظلمة نتيجة الأمراض والأوبئة التي كانت تضرب فجأة في إحدى القرى أو المدن تسببت في موت عدد كبير من السكان[6]، وقد ارتبط الفلاحون ارتباطا وثيقا بالأراضي التي يعملون عليها لكونهم

(1) تيسر موسى، نظرة عربية على غزوات الإفرنج، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص15.

(2) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (الإيديولوجية – الدوافع والنتائج)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1993م، ص58.

(3) المرجع نفسه، ص58

(4) محمد مؤنس عوض، سندباد في عصر الحروب الصليبية، عند الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2022م، ص90.

(5) كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تر: احمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، 1995م، ص33.

(6) مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص10.

محرومين من أبسط مبادئ الحركة الشخصية أي أن الفلاحين تحولوا تدريجيا وبمعدلات متصاعدة في كافة أنحاء أوروبا إلى عبيد يخدمون السادة الإقطاعيين أو النبلاء[1].

وأن كثير من هؤلاء الفلاحين لجأوا للعمل في الأراضي الخاصة بالكنيسة[2]، لكن السادة الإقطاعيون كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكا للأراضي ومن فيها يتحكمون في الفلاح كل هذه الأوضاع السيئة والحياة القاسية وجدت من دعوة البابا أوربان الثاني[3]، للقيام بالحملة الصليبية للاستجابة الكبيرة من أولئك الفلاحين والفقراء الذين اضطروا في بعض الأحيان إلى أكل الأعشاب[4].

فقد ضاقت بهم أراضيهم مما أدى بهم لإيجاد في الشرق الآفاق الواسعة كونها الأرض التي تدر لبنا وعسلا[5]، وقد تعرضت الأراضي الزراعية للغزوات الشمالية فقد قاموا بتحطيم الجسور وإغمار الأراضي بالمياه وقد أحدثت كثرة قطاع الطرق الخوف في نفوسهم مما جعلهم في استعداد للهجرة[6].

فرأى الفلاحون في الدعوة الصليبية فرصة هائلة يختلط فيها الطمع الدنيوي بالرغبة في الخلاص من البؤس والفقر إضافة إلى أن الفلاحون الأرقاء وجدوا فيها فرصة للخلاص

(1) عبد الله الربيعي، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، مكتبة المصطفى، الرياض، 1994م، ص34.

(2) هنري بيرت، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى الحياة الاقتصادية والاجتماعية، تر: عطية القوسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص15.

(3) أوربان الثاني: ولد أوربان الثاني عام) 928 هـ/ 5231 م(في شايتون سيرمان واسمه أودو، أصبح راهبا في ديار الكلوني بفرنسا سنة) 965 هـ/ 5268 م(، التحق بخدمة البابا المتسلط المؤمن ايمانا بتفوق البابوية على الامبراطورية، ارتبط أوروبان الثاني بمجمع كنس في ساكسوني) 478هـ/ 108م)،انظر جوناثان رايلي سميث ,الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية تر محمد فتحي الشاعر الهيئة المصرية للكتاب ط2القاهرة 1999ص12

(4) رمضان عبد العظيم، الصراع بين العرب وأوروبا منذ ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، 1993، ص138.

(5) مكسيموس مرنوفد، من تاريخ الأرض المقدسة المدعوة حرب الصليب، تر: كبريو مكسيموس مظلوم، مطبعة الرهبان، القدس، 1840م، ج1، ص18.

(6) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العربي، دار الثقافة، بيروت، 1997م، ج3، ص171.

الدنيوي والأخروي، فاستجابوا لدعوة البابا لغزو الشرق الإسلامي[1]، أما بالحديث عن طبقة النبلاء فقد انشغلت بالحروب والصيد البري في الغابات[2].

رأى فرسان أوروبا ونبلائها وأمرائها في تلك الحملات فرصة لتحقيق طموحاتهم المتمثلة في زيادة ثرواتهم وملكياتهم واتساع منطقة نفوذهم وسيطرتهم، بعد أن ضاقت بهم أرض أوروبا ولم تعد مكانا لها وموردها تتناسب مع زيادة عددهم، مما سبب النزاعات المستمرة بينهم ودفعهم إلى خوض الحروب الكثيرة ضد بعضهم البعض[3].

(1) عمر توفيق، مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي، دار المعارف، القاهرة، 1997، ص15

(2) المرجع نفسه،ص15.

(3) محمود الحويري، المرجع السابق، ص30.

الفصل الثاني

التفاعل الاقتصادي بين الشرق والغرب الأوروبي

أولا: المعاملات المالية.

ثانيا: المنشآت الخدمية.

ثالثا: المناطق الحدودية المشتركة.

أولا: المعاملات المالية:

1. النظام النقدي في العوامل الإسلامية والمسيحية:

توسعت تشكيلة العملات في المنطقة إلى جانب الدينار الذهبي والدرهم الفضي الذي كان يعتبر كعملة رئيسية، كما شهدت النقود وفرة بسبب تنوع الأجناس التي أتت إلى بلاد الشام[1]، كما يذكر أن السلطات الإسلامية سكت نقود تصلح للتعامل بين الطرفين الإسلامي والصليبي في بلاد الشام في زمن الحرب الصليبية، فيقول أنّه صدرت دراهم أيوبية في دمشق باسم الخليفة المستنصر بالله وعماد الدين إسماعيل بعد سنة 640هـ/1242م مع أن المستنصر توفي سنة 640هـ/1242م، لكن هذه النقود اعتبرها علماء المسكوكات أيوبية صليبية وبعضها يحمل صليبا صغيرا ضمن مأثورات القطاعات[2]، كما قد تداولت عملات أوروبا الغربية في كثير من بلاد المدن في بلاد الشام مثل بيت المقدس، دمشق، حلب، فالعملات الفضية الالمانية كانت مستعملة في بلاد الشام حيث كانت عبارة عن عمولات بها علامة صليب يميزها عن غيرها من العملات[3].

كما كان أبناء المدن الإيطالية من البنادقة اعتمدوا في معاملاتهم على عملة الفلورين التي تعتبر عملة فلورنسة الذهبية التي يقول عنها القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى" أنها عبارة عن دنانير يؤتي بها من البلاد الإفرنجية والروم معلومة الوزن كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قراطا ونصف من المصري هذه الدنانير مشخصة على احد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه على الوجه الآخر صورة لبطرس وبولس الحواريين الذين بعث لهما المسيح عليه السلام إلى روما[4].

---

(1) Felix Fabrig, the Book of the wandering of felix, London, 1892, Vol II, p 138.

(2) علي السيد علي، المرجع السابق، ص 120.

(3) راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1368هـ/1968م، ص 150.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية، القاهرة، ج68، ص 437.

كما عرفت بلاد المسلمين عملة الدوكات الفضية التي ضربت في البندقية لكن لسوء الحظ التعامل بها كان قليلا لعدم إقبال الناس على التعامل بها في بلاد الشام واصرارهم على التعامل بعملة فلورنسة الذهبية بسبب قاعدة المعاملات في الشرق العربي كانت الذهب فيرفضوا الفضة[1].

كما قلد الفرنج الدينار الإسلامي عن طريق سك الدراهم الفضية ذات عبارات مسيحية نقشت باللغة العربية والتي كان أول ظهور لها سنة 613هـ/1216م، فقد كانت تقليدا لدراهم الملك الظاهر الغازي[2] حاكم حلب في تلك الفترة نقشت عليها تاريخ ضربها[3]، والتي تعتبر أقدم أنواع الدراهم الفرنجية التي ضربت بدار السك النقود في عكا[4].

وقد قلد الصليبيون النقود الفاطمية والأيوبية وكان معترفا بها في الشرق كله، فقد قلدت من أجل تسهيل المعاملات التجارية بين الطرفين وتثبيت أقدامهم بالأراضي المقدسة ولدفع الفدية بها في حالة وقوع أحدهم في الأسر، كما عرفت أن النقود الإسلامية التي كانت منتشرة في المنطقة كانت متداولة ومعترف بها في جميع إمارات الفرنج بالشام في تلك الفترة[5]، وقد عرفت في المراجع الغربية تحت اسم (Besants Sarracemates) وتعني الدنانير (البيزنتيات) التي ضربت تقليدا للدنانير الإسلامية وفي المصادر العربية عرفت باسم "الدينار الصوري" الذي يبلغ وزنه حوالي ثلثي وزن الدينار الفاطمي[6]، وخير دليل على ذلك

(1) علي السيد علي محمود، المرجع السابق، ص 120.

(2) الملك الظاهر الغازي: هو الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن السلطان صلاح الدين الايوبي من امراء الدولة الايوبية شقيق الملك الناصر(يوسف) امهما تركية وهو صاحب مدينة حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام انظر : WWW TARAJIM COM

(3) رأفت محمد النبراوي، النقود الصليبية في الشام ومصر، مكتبة القاهرة للكتاب، القاهرة، 2001، ص 244.

(4) Felix Fabrig, the Book of the wandering of felix Fabri, London, 1892, Vol II, p 138.

(5) النبراوي، المرجع السابق، ص 223.

(6) المرجع نفسه، ص 223

وجود هذه العملة قول المؤرخ المعاصر "ابن خلكان" أن الفرنج: "لما ملكوا صور صرفو السكة باسم الأمر المذكور مدة ثلاث سنين ثم قطعوا ذلك"[1].

كما تشير المصادر إلى أنه توجد نماذج أخرى قلدها الفرنج للنقود النحاسية فيها كتابات عربية تحمل اسم الملك العادل (615هـ/1218م) التي تتميز بأخطائها الواضحة لكنها مختلفة عن الأصل في كونها لم يسجل عليها مكان وتاريخ سكتها الحقيقي، وقد وجد من هذه الدنانير تسعة نماذج قليل منها يحمل تاريخ سكه كاملا وهذه الدنانير محفوظة بدار الكتب القومية بالقاهرة[2].

كما سك المسيحيون أنصاف الدنانير التي احتوت على العبارات المسيحية وتتميز بأنها ذات هامش كتابي وأثري واحد يكمل من الوجه والظهر بدلا من هامش كما فعلو بدنانير نفس النوع[3].

وفي الفترة الممتدة من 649هـ 657_هـ/1251- 1259م حلت دنانير ذهبية صليبية محمل الدنانير الصورية هذه التي كانت تقليدا للدنانير الفاطمية، احتوت هذه الدنانير الجديدة على عبارات مسيحية بدلا من عبارات إسلامية إلا أنها مسجلة أيضا باللغة العربية وفي نفس الوقت اتخذت شكل الدنانير الفاطمية والفرق بينهما وبين الدنانير الفاطمية أن الخط المحفور على الدنانير الفاطمية هو الخط الكوفي الذي ظل مستخدما في الدنانير الأيوبية حتى سنة 622هـ/1225م حينما حل محله الخط النسخ، كما من المؤكد أن الفرنج كانوا يرغبون في أن تحتل نقودهم الجديدة وتتفوق عن النقود الأيوبية المتداولة في الأسواق حينئذ[4].

وتشير بعض المراجع أنه كان لكل امارة من الإمارات الفرنجية عملتها الفضية الخاصة بها التي تم سكها عهود بعض حكامها فقد كان حكام طرابلس اللاتين يسكون عملة فضية

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج2، ص 328.
(2) النبراوي، المرجع السابق، ص 223.
(3) النبراوي، المرجع نفسه، ص 224.
(4) علي السيد، المرجع السابق، ص 122.

وهي التي كانت تسمى في المصادر العربية بالقراطيس، أما العملات الذهبية التي كانت تضرب فيها فهي البيزنت[1]، فكان على الصيارفة التعامل بهذا الخليط من العملات التي كانت موجودة إلى جانب العملات الموجودة في الشرق العربي جنب إلى جنب مع العملات الأوروبية وكانت هذه العملات تختلط بالمدن وبخاصة البحرية منها بعملات المسلمين في بلاد الشام وفارس وبلاد ما بين النهرين فهذا التبادل يحدث يوميا[2].

2. الأعمال المصرفية والصيارفة:

كان لازدهار عمليات التبادل الاقتصادي بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية الدور في وجود أعمال مصرفية تخدم المصالح التجارية بين الطرفين، فمما لا شك فيه أن المسلمين استخدموا ما كان معروفا لديهم من نظم مصرفية ومالية في معاملاتهم مع هؤلاء الفرنج، كما لم تكن الأعمال المصرفية بالنسبة للمسلمين تشكل حدثا جديدا، حيث سبق أن عرفوا الكثير من النظم المصرفية في مصرف الشام والعراق وبلاد فارس وغيرها منذ ان كانت لهم دولهم[3]، كما كانت مدن الشام تحتضن الكثير من السياح والتجار الوافدين من مختلف أنحاء أوروبا لذلك فقد كانت أغلب فكرة خاطئة مدن الشام تحتوي على سوق للصرافين أو خان للصرافين على الأقل مثل السوق الكبير للصرافين بمدينة القدس وتوجد العديد من التوثيقات التاريخية التي تشير إلى أن هذا السوق يتموقع عند شارع منطقة التقاء شارع داوود وباب المحراب الذي يطلق عليه اسم شارع المعبد[4]، في حين النظام المصرفي في أوروبا نفسها لم يتطور إلا خلال فترة الحروب الصليبية، بعد أن نقله الفرنج عن الشرق العربي[5].

---

(1) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مطابع رمسيس، الإسكندرية، 1967، ص 204.

(2) قدر قلعجي، صلاح الدين الأيوبي قضية الصراع بين الشرق والغرب خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر ميلادي،

(3) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص 128.

(4) مجيرالدين الحنبلي، الإنس الجليل بتاريخ القدس والخيل، تح: عدنان يونس، مكتبة وندبس، عمان، 1999، ص 403.

(5) فهمي زكي نعيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص 342.

ويتم في هذه الأسواق تسليم التاجر المبلغ المالي للصراف ليحصل منه على صك لإثبات تحويل المبلغ ويستخدم هذا الصك لسداد ثمن البضائع التي يشتريها كما تعرف هذه الطريقة في الوقت الحالي "بالشيكات" المحولة فهي طريقة للتسديد أو التحويل المالي يبدو أنها كانت أرقى ما وصلت إليه المعاملات المالية والمصرفية في الدول والولايات الإسلامية[1]، كما لجأ الكثير من التجار إلى طريقة أخرى للتعامل المالي التي تعرف في وقتنا الحالي باسم السندات المالية المؤجلة وتتم هذه العملية عن طريق استفادة التاجر من استغلال رأس المال الكامل في التجارة والسداد يتم بعد تنفيذ العملية من خلال بيع بضاعته وبعد ذلك يتم تحصيل المبالغ المستحقة من قبل الصرافين بعد خصم العمولات أو المرتبات المتفق عليها، كما يستفيد من هذه العملية كل من المقرض والمقترض إضافة إلى الوسيط في نفس الوقت كونها تضمن حقوق صاحب رأس المال دون عناء[2].

كما كانت للصيارفة عند المسلمين القدرات والخبرات الطويلة في التعامل النقدي في شتى المعاملات السائدة في ذلك العصر في شتى أنواع أعمالهم حيث كانت أحد أعمالهم استبدال العملات المختلفة التي يحملها الحجاج المسيحيون من مناطق مختلفة من أنحاء الغرب الأوروبي وغيرها من البلاد لزيارة الأماكن المقدسة في بلاد الشام ومصر[3].

كما كان المسلمون السبق أيضا على الفرنج في استخدام نظام السندات المالية المحولة للغير والتي اقترن ظهورها بزيادة النشاط التجاري بين الشرق والغرب في فترة الحروب الصليبية وهذه الطريقة المالية كانت أضمن طريقة لحفظ المال من الضياع أو المصادرة، كما يتولى هذه العملية المصرفيون أو الصيارفة والتي أصبح عن طريقها بإمكان التجار

(1) فهمي زكي نعيم، ص 342.

(2) الحنبلي، المصدر السابق، ص 403.

(3) المصدر نفسه ،ص 403.

ايداع ما لديهم من أموال لدى إحدى المصارف للحصول على سندات بقيمتها واجبة الدفع للمكان القاصد إليه[1].

إضافة إلى طريقة الدفاتر التي تستخدم بشكل واسع في حساباتهم التجارية والتي تتمثل في استخدام كتاب الدفتر لتسجيل وتوثيق المعاملات التجارية التي تتضمن المبيعات والمشتريات والمدفوعات والاستحقاقات ويعتبر هذا الدفتر مرجعا هاما للتاجر تتبع أنشطته التجارية ومعرفة رصيده وارباحه كما أن هذه الدفاتر ملمة باللغة العربية تستخدم بشكل خاص لمصاحبة التجار الفرنج طوال عمليات البيع والشراء لتسجيل جميع المعاملات التجارية عليها[2].

فقد شارع عن المسلمين أنهم كانوا ذو خبرة واسعة بنظام سجلات الحسابات التي كثر استخدامها لدى التجارة والصيارفة التي كانت موضع ثقة الجميع لا تقبل النقض[3].

ومن النظم التي كانت شائعة عند المسلمون وطبقوها أيضا في تعاملهم مع الفرنج في بلاد الشام في تلك الفترة ما يعرف نظام المقارضة والذي حاليا تحت اسم عقد التوصية ذي الجانب الواحد ويعرف أيضا باسم عقد التوصية الاصلي الذي يشترك فيه إثنان صاحب رأس المال والمستثمر ونسبة الربح يتم بين الطرفين بنسبة اتفق عليها مسبقا[4].

هذا النظام نفسه استخدمه تجار الفرنج بخاصة البنادقة في تجارتهم مع شرق البحر الأبيض المتوسط كله[5]، فقد عرفت كتب الفقه الإسلامي هذا النظام لما يدل دلالة واضحة على ان المسلمين قد سبقوا الفرنج في معرفة بانه يعني أن يقوم شخص بدفع المال للآخر ليتجر فيه على أن يكون الربح بينهما على ما شرطا، والخسارة على صاحب رأس المال وعند الفقهاء هو عقد بين اثنين يتضمن أن يدفع أحدهما للآخر مالا يملكه يتاجر فيه بجزء

(1) فهمي زكي، المرجع السابق، ص 347.

(2) المرجع نفسه، ص 347.

(3) العسقلاني، أنباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسين حبشي، مكتبة حيد آباد، الهند، 1908، ج2، ص 132.

(4) Lopez, Médiéval Trade in the mediteriean world, new York, 1961, p 175- 176.

(5) Lopez, Médiéval Trade in the mediteriean World, new York, 1961, p 175- 176.

شائع معلوم من الربح كالنصف أو الثلث أو الربع أو نحوهما بشرائط مخصومة[1]، وقد فضل أمداد كبيرة من أبناء المدن التجارية الغربية في الشرق الفرنجي الإقامة في المدن والموانئ الشامية على القسطنطينية ذلك لقربها من مراكز التجارة في وسط آسيا وآسيا الصغرى والخليج العربي، وحرصهم على إقامة علاقات تجارية مع المسلمين في بلاد الشام أن نشطت العمليات المصرفية لدى الفرنج أنفسهم في بلاد الشام[2].

ظهرت عائلات كبيرة تعمل بالتجارة والاعمال المصرفية منها من كانوا يزاولون نشاطهم في حلب خاصة ولهم فرع في دمشق وبيروت وكانت تربطهم علاقات عمل بأشراف البندقية جميعهم، كما أن ظهور هذه الطبقة من التجارة والصيارفة المستقرين أدى إلى نشأة فئة جديدة من التجار والصيارفة التي كانت مهمتهم استثمار رؤوس أموال غيرهم بالإضافة إلى ما يخصهم من أموال وكان هؤلاء هم عماد تجارة الفرنج وبخاصة من البندقية، يضاف إلى هذا أنهم لم يتخصصوا في سلعة بعينها بل حملوا جميع أصناف المتاجر[3].

ثانيا: المنشآت الخدمية:

1. الخانات:

توجد في المدن الخاضعة لحكم الفرنج العديد من تجار المسلمين من شتى المدن من حلب، ودمشق وحمص وحماة والموصل وخير دليل على ذلك ما نقله لنا الرحالة ابن جبير عقب أدائه لمناسك الحج عام 580هـ/1182م والذي يتحدث عن التجار المسلمين من أهل دمشق الذين كانت تجارتهم كلها بالساحل الإفرنجي والقوافل صادرة وواردة ببضائعهم فقد جاء في نص المعاهدة قدر مهم عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير[4].

فكما عرفت المدن الإسلامية الفنادق المخصصة للتجار الأجانب فإن المدن التي خضعت لحكم الفرنج في بلاد الشام عرفت الخانات التي خصصت لتجار المسلمين الذين

(1) عبد الرحمن الجزيري، تاريخ الفقه على المذاهب الاربعة، مكتبة الحقيقة، الابول، 1970، ج3، ص 43.

(2) زكي نعيم فهمي، المرجع السابق، ص 39.

(3) القلقشندي ،المصدر السابق ،ج14,ص50,51

(4) ابن جبير،المصدر السابق،ص281

يغدون على تلك البلاد[1]، فقد لعبت دورا هاما في مجال التبادل بين الطرفين ولفظ الخانات أطلق على الأماكن التي يستقر بها المسلمون في البلاد الخاضعة لحكم الفرنج أي عكس الفنادق[2]، وتشير المصادر إلى ذلك عند ذكر الرحالة ابن جبير عند وصوله للمدينة صور التي كانت تحت حكم الفرنج، ويظهر ذلك في قوله: "فنزلنا بها في خان معد لنزول المسلمين"[3]، والخانات كمؤسسات لخدمة الأغراض التجارية لم تختلف من حيث تكوينها او الغرض من انشائها من الفنادق في اي شيء سوى أن الفنادق كانت في المدن الإسلامية خصصت للتجار الأجانب من غير المسلمين بينما خصصت الخانات في هذه المدن الإسلامية للتجار المسلمين الوافدين من العالم الإسلامي[4]، فالخان هو عبارة عن مبنى ضخم يتوسطه فناء على هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم ويجدون فيها مأوى لهم ولدوابهم خلال رحلتهم[5].

أدت الخانات دورا هاما في خدمة التجارة الداخلية والخارجية مما جعل الحكام والسلاطين المسلمين يهتمون اهتماما بالغا ببناء العديد من الخانات على طول الطرق التجارية الرابطة بين بلاد العراق وبلاد الشام من جهة ومصر والشام من جهة أو بين بلاد الشام والحجاز من جهة أخرى، وكان الهدف هو تسهيل التجارة الداخلية بين البلدان الإسلامية من ناحية[6]، وبالتالي خدمة التجارة الخارجية من ناحية أخرى فلقد اهتم نور الدين

(1) عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983، ص 289.

(2) المرجع نفسه، ص 296.

(3) ابن جبير، المصدر السابق، ص 281.

(4) براور يوشع، الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، تر: عبد الحافظ الينا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001، ص 234.

(5) المرجع نفسه، ص234

(6) براور يوشع، المرجع السابق، ص 234.

محمود بن زنكي[1] ومن بعده صلاح الدين الأيوبي الذي اهتم بالتجارة وحرص على حماية طرقها من المفسدين فأنشأ نور الدين محمود الخانات للتجار على طول الطرق التجارية التي تربط بلاد الشام بعضها ببعض فأمن الناس وحميت أموالهم وقد باتو في الشتاء امن من البرد والمطر[2]، وقد أقام الأبراج لحماية الطرق التجارية وأزال المكوس المفروضة على التجارة ليشجع التجار على التردد على بلاده[3].

لذلك وصف ابن جبير الخانات التي مر بها في طرق بلاد الشام على أيام صلاح الدين الأيوبي في قوله: "إنها كالقلاع مناعة وحصانة وأن أبوابها من حديد"، وقد قال عن الطريق من حمص إلى دمشق أنه كثير الخانات، ومن هذه الخانات خان السلطان الذي بناه صلاح الدين الذي كان في غاية الوثاقة والحسن بباب حديد، وفي هذا الخان ماء جار يتسرب إلى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج[4].

2. الفنادق:

تشير المصادر إلى أن الحكام والسلاطين المسلمين اهتموا اهتماما كبيرا براحة التجار الأجانب بوجه عام وتجار الفرنج بوجه خاص خاصة الذين يغدون إلى البلاد الإسلامية من بينها بلاد الشام ويعود ذلك إلى كون العلاقات التجارية كانت قائمة بين المسلمين وابناء الغرب الأوروبي منذ القرن الثامن من الميلاد أي ذلك قبل الحروب الصليبية ومجيء الفرنجة إلى بلاد الشام[5]، كما قام الكثير من أبناء المدن التجارية الاوروبية ببيع السلاح والاخشاب اللازمة لبناء السفن، والدروع والسيوف وخشب الدردار الذي العرب شجر اليق والذي تصنع

(1) نور الدين محمود بن زنكي: هو الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر نشا نور الدين في كفالة والده تعلم القران والفروسية والرمي وكان شهما شجاعا ذا همة عالية وقصد صالح وحرمة وافرة وديانة بينة انظر :أبو الفدا المصدر السابق،ص297

(2) ابن جبير، المصدر السابق، ص 281.

(3) براور يوشع، المرجع السابق، ص 260.

(4) ابن جبير، المصدر السابق، ص 277.

(5) عفاف صبره، المرجع السابق، ص 91.

منه أدوات المراكب والأثاث لمتانته.، والالواح الخشبية والمجاديف والقوارب[1]، رغم هذا فإن الحكام المسلمين بالرغم من قيام تلك العلاقات التجارية بينهم وبين أبناء الغرب الاوروبي فإنهم لم يصنعوا للغرب فنادق في المدن الإسلامية إلا بعد ازدهار حركة التبادل التجاري بين الشرق العربي والغرب الأوروبي[2]، كان الفرنج في بلاد الشام يضمون فيما بينهم أعداد كبيرة من أبناء الطبقة البرجوازية المتمثلة بشكل أساسي في أبناء المدن التجارية الغربية في جنوا و بيزا و البندقية وغيرها من مدن جنوبي فرنسا مثل مرسيليا، وغيرهم من الذين دفعتهم شهوة الكسب والتوسع التجاري إلى المساهمة في الحروب الصليبية والاستيلاء على المدن والموانئ الإسلامية في بلاد الشام[3].

لعب التجار الاوروبيون دورا مهما في فتح أنطاكية والقدس وطرابلس، وبقية المدن والموانئ ولم ينتهي حتى استقروا في البلاد وساهموا في تنظيمها وإدارتها بما نالوه من امتيازات خولتهم حق السكن واتخاذ المستودعات والإعفاء من الضرائب وراحوا عندها يقومون بالتوسط بين الشرق والغرب متخذين تلك المرافئ الشامية مركزا لصفقاتهم فيشيعون منها ما يبتاعون من حاصلات الشرقيين العربي والأقصى إلى موانئ الغرب الاوروبي فازدادت حركة التجارة خاصة في الديار الشامية ولا عجب في ذلك فقد تفتحت امامهم أمصار وأقطار لم يكن للشرق عهد بها[4].

(1) Lopez, Médiéval Trade in the Mediteriean world, new York, 1961, p 334.

(2) صبحي لبيب، الفندقة ظاهرة سياسية، اقتصادية، قانونية، مصر وعام البحر المتوسط، القاهرة، 1986، ص 389، 380.

(3) Heyd, (W) Histoir Du Commerce Du Levant Au ,MOYAN Age ,Leipzing,1936,opI, pp 131- 145.

(4) زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1998، ص 185– 186.

لذلك فمنذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي –زمن الأيوبي– سمح لتجار الفرنجة الإقامة في فنادق داخل المدن الإسلامية في الشام مثل البنادقة، الفلورنسيين، البيزيين، البراشنة وغيرهم[1].

فالفندق عبارة عن مبنى إسلامي في أرض إسلامية تقدمه السلطات الإسلامية لرعايا دولة أو جمهورية أجنبية صديقة أو تربطها بها علاقات اقتصادية فيخصص هذا الفندق لنزول الوافدين من هذه الدولة او الجمهورية لإقامتهم المحدودة في المدن الشامية ولتخزين بضائعهم وممتلكاتهم فقد أقيم دور أرضي جيد التهوية ومتسع لتخزين البضائع، يوجد به فناء لوضع البضائع بعد فرزها لكي تنقل خارج الفندق كما كان يسمح في الفندق للصلاة للذين يعتنقون الديانة المسيحية مما يدل على كمية التسامح الديني الذي نشأ في تلك الحروب[2].

والجدير بالذكر ان الشريعة الإسلامية تقضي باعتبار المقيمين في الثغر او المدينة الإسلامية أقل من سنة حدا اقصى، فإن طالت إقامة الوافد منهم عن عام كامل ووجب عليه أداء الجزية، حيث كانت بعض مدن الشام مثل دمشق، حلب، حماه وحمص وغيرها بمثابة المحط النهائي بالنسبة للطرق التجارية القادمة من الشرق الاقصى، لذا فقد كان على تجار الفرنج أن يقوموا بالتعاقدات على اعمالهم التجارية هنالك في فنادقهم ثم ينقلون مشترياتهم على ظهور الجمال إلى أنطاكية وصور وعكا ومن هذه الموانئ تأتي السفن لكي تنقلها إلى أوروبا[3]، تجدر الإشارة إلى انه كان لكل فندق من هذه الفنادق كمشرف كتابة الرئيس الأعلى أو المشرف الإداري، هو الذي أطلق عليه لفظ الفنداقي والذي كان من أهم اختصاصاته الإشراف العام على سير العمل في الفندق والحياة اليومية للنزلاء به كما أنه

(1) فهمي زكي نعيم، المرجع السابق، ص 294.

(2) المرجع نفسه، ص 294.

(3) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، ط1، 1400هـ/1980م، ص 244.

يمثل ابناء الجالية الموجودة بداخله أمام السلطات الإسلامية لذا روعي في انتخابه أن يكون من ذوي النفوذ والجاه[1].

وحرص السلاطين على راحة وأمن هؤلاء النزلاء من أن يتعرضوا لأية اعتداءات من قبل المسلمين بسبب تباين العادات والتقاليد بين الشرق والغرب الأوروبي فقد طالبوا هؤلاء النزلاء بضرورة احترام عادات وتقاليد البلاد وإغلاق الفنادق من الخارج ليلا خوفا من حوادث السطو ومنعهم من التجول في الشوارع أوقات صلاة الجمع والأعياد وأمروهم بإغلاق أبواب الفنادق لمدة ساعة أو ساعتين في تلك الفترة لأن البلد تكون خالية ويخاف عليهم اللصوص والمجرمين[2]، كما قد بالغ بعض السلاطين في توفير كل سبل الراحة لهم فقد سمحوا لهم بإقامة مخابر ومستودعات خاصة بالمياه العذبة وخزانات المياه، وسمح لهم بتربية الخنازير في حدائق فنادقهم وبشرب الخمور فيها[3].

كما كفلت لهم المعاهدات التجارية حمايتهم في الأراضي الإسلامية بل وحماية من يصحبونهم من الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس وغيرها من الأماكن المقدسة في بلاد الشام، وحسن معاملتهم وعدم إجبارهم على دفع الضرائب أكثر مما هو مقرر فعلا، كما منحتهم السلطات الإسلامية حرية البيع والشراء[4]، وقد خصصت منازل بالقرب من الكنائس التي يزورها الحجاج المسيحيون للإقامة فيها مثلما جاء في الهدنة الموقعة بين السلطان المنصور قلاوون[5]، الصالحي وحكام الفرنجة بعكا سنة 682هـ/1283م والتي نصت على: أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين

(1) راشد البراوي، المرجع السابق، ص 271.

(2) المرجع نفسه، ص 271.

(3) صبحي لبيب، المرجع السابق، ص 389.

(4) عادل زيتون ,المرجع السابق ,ص272

(5) القلقشندي، المصدر السابق، ج8، ص 60- 61.

الصليبية...، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم[1].

كما جرت العادة أن يعطي هؤلاء التجار من الفرنج مخازن في مناطق الجمارك في بخلاف الفنادق، وكانت هذه المخازن تزود بكل الوسائل الضرورية للحياة اليومية من خزان للمياه العذبة [2].

3. المناطق الجمركية أو مناطق تمكيس القوافل:

اعتبرت بلاد الشام مركزا للنشاط التجاري بين الشرق والغرب فقد ازداد الانتعاش الاقتصادي في المدن والموانئ الخاضعة لحكم الفرنج من جهة وجهة الحواظر الإسلامية من جهة أخرى[3]، وكانت حياة الفرنج الاقتصادية يعتمد على التعامل التجاري مع بلاد المسلمين فقد أتاح الفرنج للقوافل التجارية المرور في بلادهم كما أقاموا مناطق جمركية على حدود إمارتهم هذه الأخيرة ورد ذكرها بعضها عند الرحالة ابن جبير تحت اسم مواضع تمكيس القوافل[4].

يذكر أنه بعد خروجه من دمشق ومروره على مدينة بانياس فإن القافلة وصلت إلى موضع يسمى بتبين هو حصن كبير من الحصون الإفرنجية وهو موضع تمكيس القوافل وفي هذه المنطقة الجمركية ذكر لنا أن الفرنج كانوا يحصلون من كل مسلم يمر بهذه المنطقة على $\frac{1}{24}$ من الدينار عن شخصية باستثناء المغاربة الذين كانوا يدفعون دينار زيادة عن بقية المسلمين[5]، والسبب راجع لخنق الفرنج عليهم كونهم كانوا يترددون على بلاد الفرنج ويدفعون نفس الضريبة التي يدفعها عليهم وهي $\frac{1}{24}$ من الدينار لكنهم عندما ساعدوا

(1) المنصور قلاوون: هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي و أبو الفتح قلاوون بن عبد الله الالفي التركي الصالحي النجمي السابع من ملوك الترك بالديار المصرية ,انظر :ابن تغرى بردي ,المصدر السابق,ج7,ص292

(2) عفاف صبره، المرجع السابق، ص 289.

(3) عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 108.

(4) ابن جبير، المصدر السابق، ص 275

(5) المصدر نفسه، ص 276.

نور الدين محمود في غزوة لأحد الحصون الفرنجية وكان لهم دور بارز في الاستيلاء عليه منحهم الفرنج في ذلك هذه الضريبة الزائدة بل باقي المسلمين[1].

أما التجار فكانوا يدفعون نفس القيمة السابقة مع إضافة ضريبة ما يحملون من بضائع تقدر بحوالي 10% من قيمة ما يحملونه من سلع[2]، وبالنسبة لثاني منطقة جمركية كانت عكا التي احتوت على ديوان لتسجيل الوارد من المبالغ المحصلة من القوافل التجارية التي ترد من بلاد المسلمين بعد تحصيل الرسوم على السلع التي جلبها التجار معهم وكل ذلك يحصل بدون تعنيف، ومن المناطق التي ذكرها ابن جبير أيضا "طبرية" التي تمد إليها القوافل بوجه خاص من مدينة دمشق لسهولة الطريق المؤدية إليها ولقرب المسافة بينهما[3].

إضافة إلى منطقة أخرى هي بيت المقدس التي تدخلها عن طريق غزة وتصعد نحو الشمال الشرقي لتخرج ثانية عند بحيرة طبرية[4]، وعند الانتقال إلى الشمال نجد مدينة أنطاكية التي أقام حكامها منطقة جمركية على جسر نهر العاصي وبالمنطقة المعروفة الآن بجسر الحديد على طريق أنطاكية وأن تجار الارمن في أنطاكية كانوا حوالي عام 1200م يتوجهون إلى مدينة حلب ببضاعتهم وأن أهالي مدينة حلب كانوا يدفعون رسوما جمركية يقصدون أنطاكية للمتاجرة فيها ولتصدير بضاعتهم إلى الغرب الأوروبي ومصر عن طريق ميناء إمارة أنطاكية على البحر المتوسط وهو اللاذقية[5].

ورغم هذا الحركة التجارية كانت الفائدة لدول الفرنج في بلاد الشام لأنها حصلت على مبالغ نظير السماح لهذه المتاجر بالعبور على أراضيها فالكتان المصدر من القاهرة إلى دمشق يخضع لرسوم مرور والعديد من السلع الأخرى الذاهبة والعائدة على نفس الطريق

(1) سيد علي الحريري، الحروب الصليبية وأسبابها ونتائجها، دار التضامن، بيروت، 1988، ص 80.

(2) نجد محمد عبد القادر عطا، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، قسم 2، ص 566.

(3) ابن جبير، المصدر السابق، ص 275- 276.

(4) أرنست باركر، الحروب الصليبية، دار النهضة، بيروت، ط2، ص 46.

(5) ابن جبير، المصدر السابق، ص 276.

كانت تأتي للخزانة لملكية بعوائد كبيرة فالقوافل المارة تترك دائها بعض الأشياء داخل المملكة التي تجتازها[1].

لكن لم تظل المناطق الجمركية ثابتة كون شكل الحدود في بلاد الشام متغيرة بتغير الزعيم المسلم إذا كان قويا فيلم شمل المسلمين بمهاجمة الفرنج في عقر دارهم لينزع منهم الحصون والقلاع وحتى المدن ليقلصوا الإمارات الصليبية ومن أشهر زهاد الجهاد الإسلامي نذكر عماد الدين الزنكي وابنه نور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبي ثم سلاطين المماليك أمثال الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل بن قلاوون وغيرهم وخير مثال هو الأخير الذي استطاع تحطيم الكيان الصليبي وطرد الفرنج نهائيا عام 690هـ 1291م لذلك نلاحظ وجود مناطق أخرى للجمارك مثل الداروم والمرقب والجسر وبرج البيع[2].

إلا أن فترة الحروب الصليبية واحتكاكهم بالفرنج عن كثب في بلاد الشام ومعايشتهم بشكل دائم كل هذا ادى إلى حدوث تطوير في نظام الجمارك عندهم ودليل ذلك ما جاء في البند الثامن عشر عن الامتياز التجاري الممنوح من طرف السلطان الملك العادل الأيوبي سلطان مصر والشام لتجار الفرنجة سنة 635هـ/1238م أنه في حالة قدوم سفنهم إلى الموانئ الإسلامية فإذا لم يرغبوا في البيع فلهم حرية العودة ببضائعهم أيا كانت[3].

كذلك يبدو لنا أن الرسوم الجمركية كانت واضحة ومعروفة بل ومتفق عليها من قبل الطرفين كما سبق ان أشرنا إلى أن نسبة

الجمارك التي كانت يتم تحصيلها من قبل المسلمين تتراوح ما بين 6- 20% على السلع التي يأتي بها تجار الفرنج كما تضمنت نصوص الاتفاقيات بنودا مؤكدة على ذلك فقد جاء في معاهدة السلطان الظاهر بيبرس ، عام 667هـ/1267م أنه لا يوجد على احد من

(1) ابن جبير ،المصدر السابق ، ص 276.

(2) المصدر نفسه، ص 282.

(3) المصدر نفسه ، ص 184- 187.

التجار المترددين رسم لم تجربه عادة بل يجبرون على العوائد المستمرة القواعد المسترة من الجهتين[1].

وقد استثنى من هذه الرسوم الجمركية معدني الذهب والفضة نظرا لأهميتها في التعامل وبخاصة المسلمين الماسة إليها ثم تشجيع تجار الفرنج على إحضارهما كما تضمنت المعاهدات والاتفاقيات التجارية كثيرا من البنود التي نظمت معاملة تجار الفرنج في هذه الحالة[2]،

وبخلاف معدني الذهب والفضة والأحجار الثمينة والفراء وهي الأشياء التي أعفيت من الرسوم الجمركية فقد عرفت نوعا من ال"إعفاءات على بعض الأشخاص الذين يتمتعوا بحصانة دبلوماسية مثل وقتنا الحاضر مثل قناصل الجاليات الفرنجية المقيمة داخل المدن الإسلامية[3]، ولعل خير دليل على ذلك ما جاء في البند الرابع عشر من الامتياز الذي جدد الناصر قلاوون 701هـ/1302م لتجار البنادقة الذي سبقت الإشارة إليه الذي تم النص على أنه بشأن ما جرى العرف عليه فيما يتعلق بمعاملة قنصل البندقية وإعفائه من الف بيزنت كل عام عند دخوله وخروجه فقد أمر السلطان بشموله برعايته وأن يتمتع بذلك الإعفاء حسبما جددته العامة في ذلك[4].

ومن الملاحظ أن السلطات الإسلامية حرصا منها على سياسة عدم التكديس بالنسبة للبضائع داخل المناطق الجمركية، فقد عملت على تسهيل الإجراءات الخاصة بالتخليص الجمركي عليها وحث تجار الفرنجة على سرعة التخليص على بضائعهم التي تم وزنها[5]، فكنوع من تخفيف تكدس البضائع وتسهيل تفريغها أو شحنها ونقلها داخل المناطق الجمركية، فإن السلطات الإسلامية سمحت لهؤلاء التجار من الفرنج بشراء البضائع المرغوب

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص 63.
(2) عفاف صبره، المرجع السابق، ص 273.
(3) المقريزي، المصدر السابق، ج 1، ص 985- 995.
(4) المصدر نفسه، ج 1 ،ص 985- 995.
(5) عفاف صبرة، المرجع السابق، ص 288.

فيها من قبل التجار المسلمين داخل الجمرك مع دفع رسوم إضافية بسيطة مع إجازة بيعها مرة أخرى باي زيادة رغبوا فيها[1]، فقد حرصت الاتفاقيات التجارية والامتيازات على إبراز هذه النقطة فقد جاء الامتياز الذي منحه المنصور قلاوون لتجار البندقية وتم تحديده بناء على طلبهم في عهد ابنه الناصر محمد على: أنه إذا أعجب احد التجار البنادقة ببضائع في الجمرك ورغب في شرائها فإنه يستطيع ذلك مع زيادة بسيطة وله أن يستلمها في مخزنه ثم يبيعها بعد ذلك من رغب ولا يغالب الذي اشتراها برسوم جديدة حتى لو باعها بسعر أزيد من الذي اشترى به كما لا تطلب منه رسوم على زيادة السعر[2].

ثالثا: المناطق الحدودية المشتركة

أ. قوانين العرف البحري والمياه الإقليمية:

لطالما تميز البحر الأبيض المتوسط بكونه ممر بحري مشترك بين الدول الإسلامية والفرنجة، سواء في منطقة الشام أو غرب أوروبا فقد شهد هذا الممر نشاطا مهما في مجال النقل البحري والتبادل التجاري بين الطرفين، وبناء على هذا النشاط توجب الحاجة إلى وضع قوانين ومبادئ متفق عليها من الطرفين ولا سيما بعد أن صبحت بعض المدن والموانئ جزءا

(1) المقريزي، المصدر السابق، ج 1،ص 985.

(2) القلقشندي، المصدر السابق، ج14، ص 108.

من الحدود المشتركة[1]، التي تمت إدارتها بشكل ثنائي بين الطرفين حيث تشير بعض المصادر لذلك مثل ما جاء في هذه المعاهدة التي تم إبرامها بين السلطان الطاهر بيبرس وبين فرسان الاسبتارية عام 669هـ/ 1270 م، على سبيل المثال وما يؤكد ذلك حيث نرى فيها البند التالي: «وإن كل ما هو من الموانئ والمراسي البحرية المعروفة جميعها تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار وما ينعقد عليها ارتفاعها وتشهد به الحسابات جميعه مناصفة»[2]، هذه القواعد والمبادئ أدت إلى قيام تقاليد مرعبة وعرف بحري يتعامل الطرفان في ظله[3].

كما تمت صياغة هذه المعاهدات لتبين احترام القوانين البحرية بين الطرفين مثل ما جاء في نص المعاهدة التي وقعت بين السلطان الملك المنصور قلاون الصالحي صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية وولده الملك الصالح علي ولي العهد وبين حاكم الفرنجة بعكا وما معهما من بلاد سواحل الشام سنة 682هـ/1283م التي جاء في بندها: وعلى أنه إذا انكسر من مراكب تجار السلطان وولده التي انعقدت عليها الهدنة ورعيتها من المسلمين وغيرهم: عن اختيار أديانهم وأجناسهم في ميناء عكا وسواحلها والبلاد الساحلية التي انعقدت عليها الهدنة، كان كل من فيها آمنا على الأنفس والأموال والابتياع والمتاجر، فان وجد أصحاب هذه المراكب التي تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم إليهم، وان عدموا بموت أو غرق أو غيبة يحتفظ ويسلم لنواب السلطان وولده، وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقدة عليها الهدنة للفرنج يجرى لها مثل ذلك في بلاد السلطان وولده، ويحتفظ بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضرا إلى أن تسلم لكفيل المملكة بعكا، أو المقدم[4]، وفيما يتعلق بأعمال القرصنة فقد جاء العرف البحري لوضع قانون خاص بها فقد جاء في نفس المعاهدة

(1) عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1986م، ص230.

(2) المرجع نفسه، ص230.

(3) المقريزي، المصدر السابق، ج1، قسم 3، ص992،991.

(4) المقريزي، المصدر السابق، ج1، قسم3، ص991-992.

النص التالي: «وعلى أن النائب بمملكة عكا والمقدمين يوصون في سائر بلاد السواحل التي وقعت عليها الهدنة أنهم لا يمكنون حرامية البحر من الزوادة عندهم، ولا حمل ماء، وإن ظفروا بأحد منهم يمسكوه، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكهم كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه وكذلك، يعتمد مولانا السلطان وولده ويعتمد في أمر الحرامية هذا الاعتماد من الجهتين»[1].

كما جاءت عدة نصوص تنص على ضرورة تأمين معاملة السفن الحربية سواء كانت إسلامية أم فرنجية في المياه الإقليمية مثل ما جاء في نص المعاهدة الموقعة بين المنصور قلاوون وبين متملك طرابلس سنة 680هـ/1281م: «وعلى الموانئ من الجهتين أن تكون آمنة كل طائفة من الآخر ولا ينقص ذلك بموت أحدهما»[2]، كذلك جاءت النصوص في المعاهدات المبرمة بين الطرفين تنص صراحة على تأمين المسافرين من المسلمين على متن سفن لا تتبع دول الفرج الموقعة على الهدنة لتبين لنا الإجراء المتبع في هذه الحالة فقد جاء في نص المعاهدة «وإن سافر أحد من المسلمين في مركب غير مراكب الجنوية من إعداد الجنوية أو غيرهم لا يتعرضوا لأحد من المسلمين وإن أخذوا عدوهم يكون المسلمون جميعهم آمنين في نفوسهم وأموالهم ومماليكهم وجواريهم في رواحهم ومجيئهم ولا يعقهم الجنوية، بسبب أحد ولا يأخذوا عن غيره ولا يطالبوه بدين ولا دم وأن لم يكن ضامنا ولا كفيلا.

ومن الملاحظ أن قوانين العرف البحري التي تم تطبيقها بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية لها الآثار الواضحة في قيام علاقات بين طوائف الفرنج، ومثال ذلك ما يشير إليه المؤرخ اللاتيني المعاصر ويليام الصوري أثناء عرضه لبنود معاهدة عام 559هـ_ 1164م الموقعة بين البندقية وحكام بيت المقدس في النص التالي: «إذا تحطمت سفينة أحد البنادقة قرب الموانئ الفرنجية ببلاد الشام فإنه يجب حماية

(1) محي الدين بن عبد الظاهر (620-692هـ)، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور تح: مراد كمال، الشركة العربية لطباعة والنشر، ص45.

(2) القلقشندي، المصدر السابق،ج14 ص59.

ممتلكات وتسليمها إلى ورثته وأبناء وطنه» أي أنه يعني في حاله وفاة أحد البنادقة المقيمين في مدن الشرق الفرنجي يجب وضع ممتلكاته تحت تصرف البنادقة سواء ترك وصية أو لم يفعل[1].

أي أن هذه النصوص تلقى الكثير من الضوء على العلاقات السلمية بين الجانبين وقد توصل الطرفان من خلالها إلى إيجاد صيغ مختلفة لتنظيم ذلك التعايش السلمي والعلاقات السلمية بين الطرفين، وتشمل هذه القواعد والنظم في رسم الحدود بين الطرفين واحترامها وعدم التعرض الممتلكات بعضهما، وتسويه مشاكل الأسرى والرهائن وطريقة إدارة بلاد الحدود المشتركة، وتحديد الرسوم والضرائب، وكيفية معاملة الفلاحين، وتنظيم استغلال المراعي والطواحين ومصائد الأسماك، فضلا عن تنظيم المعاملات اليومية بين الناس، وطرية رفع الدعاوي والأحكام وتنفيذها، إلى جانب قوانين العرف البحري المختلفة[2].

ب. نظام الحدود المشتركة وطرق إدارتها:

نجم عن الصراع الذي دار في أرض بلاد الشام بين المسلمين والفرنج في أعقاب الغزوة الصليبية كثير من المشكلات السياسية والاقتصادية الخاصة بالمناطق المتنازع عليها ومناطق الحدود مما حتم قيام تنظيم جديد يكفل حل تلك المشكلات وهو ما اصطلحت عليه المصادر التاريخية باسم بلاد المناصفات[3]، وحصلت مفاوضات بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد بغية إحداث نظام من أجل إدارة هذه المناطق، وفي نص المفاوضات قال الملك أنا قد صالحت وهذه يدي ... ورضوا بأن تكون لد و الرملة مناصفة... ثم أمر

)1(William of tyre :History of the Deeds Done Byond The Sea ,New York Colombia Univ ,Press 1943. Vol. II. P555/

(2) Riley Smith : the feudal Nability and the Kingdon of Jeresalem, 74, 277, London, 1973, p78.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح: جمال الدين الشيات، مكتبة القاهرة، ط2، 384هـ/1994م، ص234.

المنادي أن صلح قد انتظم فقد كان من شروط هذه المفاوضة أن تصبح الرملة بلد مناصفة بين المسلمين والإفرنج[1].

كما تشير المصادر المعاصرة أن الفترة الممتدة بين 498هـ/ 1104م إلى هلاك مقدم الإفرنج النازلين على ثغر طرابلس في الرابع من جمادى الأولى بعد أن كان الأمر استقر بينه وبين فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس من المهادنة على أن يكون ظاهر طرابلس للفرنجة بحيث لا يقطع عنها ولا يمنع المسافرين منها، فيعتبر أول إشارة صريحة عن وجود هذا النظام[2]،وفي عام 502هـ 1108م تقرر عقد هدنة لمدة عشرة سنوات يعود ذلك إلى تشابك المصالح الرئيسية لبلودوين الأول ملك بيت المقدس وتغركتين أتابك دمشق فتقضي هذه الهدنة أن يقسم خراج إقليم السواد وجبل عوف، ليكون القسم الشمالي من شرق الأردن فيصير لبلودوين ذلك الخراج ولتغركتين ثلث آخر أما الثلث الأخير يكون للفلاحين العاملين بتلك المناطق[3].

كما تم عقد اتفاقيات مضمونها عدم بناء تحصينات في مناطق الحدود المشتركة من قبل الطرفين، وأن تكون هذه المناطق منزوعة السلاح وأيضا أن تقسم عوائد هذه المناطق بين بيع الغلاة الزراعية مثلما نصت المعاهدة والتي نصت على حكم مشترك لمرتفعات الجولان[4].

وتضيف بعض المصادر أنه في سنة 524هـ/1129م استولى عماد الدين الزنكي على حصن الأثارب فيما بين حلب وأنطاكيا على بعد ثلاث فراسخ من حلب، وكان من به من الفرنج تقاسموا أهل حلب على جميع أعمالها الغربية حتى على راح لأهل حلب بظاهر باب الجنان بينها وبين البلد عرض الطريق... وفي نفس السنة سار عماد الدين الزنكي إلى قلعة حارم وهي بالقرب من أنطاكيا فحاصرها، فبذل الفرنج نصف دخل بلد حارم وهادنوه

(1) المصدر نفسه، ص239.

(2) ابن القلانيسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908، ص147.

(3) المصدر نفسه، ص147.

(4) يوشع براور، عالم الصليبيين، تر: قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، دار المعارف، القاهرة، 1981، ص65.

فأجابهم إلى ذلك وعاد عنهم وقد اشتد أزر المسلمين فصار نصارى الفرنج حفظ ما بأيديهم[1].

وفي عام 544هـ/1148م توجه نور الدين محمود إلى أنطاكيا وهادنه من في أنطاكية وتقرر أن يكون ما يقرب من حلب له ما يقرب من أنطاكيا لهم[2].

ومع مرور الزمن تطور وضع هذه البلاد لتصبح خاضعة لإدارة إسلامية فرنجية مشتركة يرأسها نائبان أحدهما يمثل سلطان المسلمين والآخر يمثل الحاكم أو الأمير الفرنجي الذي وافق على عقد المعاهدة الخاصة بذلك النظام، كما تم النص في المعاهدة على أن لا ينفرد أحد منهما بشيء إلا باتفاق من الطرفين[3]، كما كان يعمل تحت أمره كل نائب منهما جهاز إداري يضم عددا من الموظفين أصحاب الاختصاصات المختلفة فبعضها تعلق بجمع الرسوم والضرائب من شتى المرافق الاقتصادية في مناطق الحدود المشتركة، وكذلك أمور تتعلق بالمحاكمات وتنفيذ الأحكام كما نسمع عن وجود عشرة ألقاب من المشاة يعملون في خدمة المشد لهم بيوت يسكنوها[4].

بالنسبة للمراعي الموجودة في هذه المناطق فقد وجب استعمالها وتأمين الرعاة والماشية الخاصة بكل طرف من الطرفين، وحرص كل طرف على عمارة هذه المناطق ومراعيها ومن يدخل إليها من الفلاحين بدواب أو من التركمان أو من البدو أو من الأكراد أو من غيرهم، كان واجب عليهم دفع الضرائب المستحقة على تلك الدواب والماشية والأعناب

(1) النوري شهاب الدين أحمد النوري، نهاية الإرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ص157.

(2) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص305.

(3) بيبرس المنصوري الدوادر، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة عصر سلاطين المماليك، تر: زبيدة عطاء، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1970، ج9، ص192.

(4) عزيز سوريال عطية ، المرجع السابق، ص182.

ويكون النصف من ذلك للسلطان والنصف الآخر للفرنجة[1]، ومنعوا من الدخول إليها في حاله واحدة هي أن يكونوا في حالة حرب مع بعض الفرنجة الداخلين في الهدنة[2].

كما وضعت بنود خاصة باستغلال مصايد الأسماك والطواحن التي تدار بقوة اندفاع تيار مياه الأنهار وغيرها والتي عادة ما كانت تستخدم في طحن الغلال، فقد جاء في إحدى المعاهدات السابقة الإشارة إليها «أن تكون مصيدة السمك الرومية مهما تحصل منها، يكون النصف منه للملك الطاهر والنصف لبيت الإسبتار، وكذا المصايد التي في الشط الغربي من العاصي يكون النصف منها للملك الظاهر والنصف للبيت الاسبتار...» [3].

ت. رسم الحدود بين الطرفين واحترامها:

تعددت النصوص في المعاهدات المبرمة بينهما بإلزام المسؤولين الفرنج والمسلمين باحترام تلك الحدود والحيلولة دون وقوع أي اعتداء عليها سواء كان ذلك من جانب القوات العسكرية أو من جانب عناصر أخرى كاللصوص وقطاع الطرق هذا مع تكليف الطرفين بردع هذه العناصر[4]، ففي المعاهدة المبرمة بين السلطان المنصور قلاوون والفرنج في عكا عام 682هـ/1283م جاء هذا النص يلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من نفسها وعساكرها وجنودها ومن جميع المترجمة والمتلصصين والمفسدين، ممن هو داخل تحت حكمها وطاعتها وليلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين لها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروعة، ويلاحظ أيضا وجود بعض التحفظات على المباني العسكرية الواقعة في حدود هذه المنطقة ففي بعض المعاهدات نجد حرص على الإبقاء على الحصول والقلاع على حالتها دون أي زيادة في استحكاماتها أو تعديل في تحصيناتها مما قد يؤثر على التوازن العسكري، ذلك حتى لا يعمد الفرنج إلى عمل ما يزيد في قوتهم بتدعيم

(1)القلقشندي، المصدر السابق، ج14، ص333.

(2)ابن شداد، المصدر السابق، ص233.

(3) المصدر نفسه، ص234

(4) عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبية، مؤسسة شباب الجامع، الإسكندرية، 1986، ص214.

حصونهم أو إنشاء حصون جديدة، كما نصت بعض البنود في هذه المعاهدة على أن لا يباشر الفرنج أي إصلاحات لازمة بها إلا بعد معاينة لنواب المسلمين وموافقتهم على ذلك فمن هذه البنود «وعلى أنهم لا يجددون عمارة قلعة ولا في القلعة عمارة ولا في أبراجها ولا يعتمد في إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نواب أو أبصر أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرممونه له بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ولا يجددون عمارة في ربضها ولا في سورها ولا في أبراجها ولا يحددون حفر عماره خندق أو قطع جبل أو تحصين عمارة أو تحصين بقطع جبل منسوبا لتحصين يمنع أو يدفع[1].

كما تجدر بنا الإشارة إلى أن هذه المناطق لم تكن مقتصرة على المناطق الزراعية فقط بل أنها شاملت العديد من المدن والموانئ، مثال ذلك ما جاء في الهدنة الموقعة بين السلطان قلاوون 680هـ/1281م، وبين بيت الإسبتار وإمارة طرابلس جاء في نصها: يستقر النواب من الجهتين بمدينة اللاذقية وميناءها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفات يستقر من هم بمدينة اللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية بيبرس[2].

ث. معاملة التجار المترددين على هذه البلاد:

بالنسبة للمعاملات التجارية ومعاملات التجار المترددين على بلاد الحدود المشتركة فقد وجدت العديد من المعاهدات التي تنظم التعامل التجاري بين الطرفين مثل ما جاء في المعاهدة التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع فرسان الاسبتارية سنة 665هـ/1266م فقد جاء في نصها: «أن التجار والسفار المترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين الإسلامية والفرنجية والنصرانية في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم يحميهم السلطان ونوابه ويتعهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة للواقع عليها الصلح وفي مناطق الحدود المشتركة من جميع

(1) المقريزي، المصدر السابق ،ج1،ص964.

(2) المصدر نفسه،ج1،ص976.

المسلمين ويحميهم بيت الاسبتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي مناطق الحدود المشتركة من الفرنج والنصارى كافة [1].

ويبدو من الواضح أن الطرفين حرصا على أمن وحرية التجار فقط بل أنهم أمنوا على حياتهم ومالهم وتجاراتهم عند قدومهم لهذه المنطقة ونلاحظ ذلك فيما جاء في معاهدة السلطان قلاوون مع الفرنج في عكا سنة 682هـ/1283م جاء في نصها: متى توفي أحد من التجار الصادرين والواردين المترددين على اختلاف أجناسهم وأديانهم من بلاد السلطان وولده في عكا وصيدا وعثليث والبلاد الساحلية الواقعة في هذه الهدنة يحتفظ على ماله إلى أن يوصل إلى نوابها، وكذلك التجار والصادرين والواردين والمترددين من عكا وصيدا وعثليث والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم إذا توفي أحد في البلاد الإسلامية داخل في هذه الهدنة يحتفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين[2].

ج. معاملة فلاحي الحدود المشتركة:

نظرا لأهمية هؤلاء الفلاحين الذين اعتبروا الأيدي العاملة التي تحتاج إليها الأراضي الزراعية فقد اعتبروا عماد الداخل في هذه المنطقة بوجه عام، فقد حرص كل من الطرفين على سلامة مزارعيه وعدم تسخيرهم في أي عمل من الأعمال لأي طرف من الطرفين ودليل ذلك ما جاء في إحدى الهدن السابقة نصها «أن يكون الفلاحون الساكنون في مناطق الحدود المشتركة جميعا مطلقين من السخر من الجانبين»[3].

اضطر بعض فلاحين الحدود المشتركة على هجرانها بسبب الحرب المستمرة بين الطرفين كما لجأوا إلى تركها عندما تشتد شوكة الفرنج ويهددون بالإغارة على أملاك المسلمين لذلك حرص الطرفان على أن تتضمن المعاهدات بنودا تنص على ممانعة أحد

(1) القلقشندي، المصدر السابق،ج،4 ،ص37.

(2) المقريزي، المصدر السابق،ج1، ص993.

(3) القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص32.

الطرفين لعودة هؤلاء الفلاحين أراضيهم مثال ذلك ما جاء في المعاهدة المبرمة بين السلطان الظاهر بيبرس وبينه الاسبتارية بحصن الأكراد والمرقب من جاء في نصها: الملك الظاهر لا يتقدم بمنع أحد من الفلاحين المعروفين بسكنى مناطق الحدود المشتركة من الرجوع إليها والسكن فيها إذا اختاروا العود وكذلك بيت الاسبتار لا يمنعون أحدا من الفلاحين المعروفين بسكنى مناطق الحدود المشتركة من الرجوع إليها والسكن فيها إذا اختاروا العود[1].

كما اشتهر الفرنج بحسن معاملة الفلاحين المستقرين في أراضيهم ورفقهم بهم حيث كانوا يملكونهم الأراضي ليزرعونها مقابل دفعهم لحاكم الفرنج نصف غلاتها، إضافة إلى بعض ضرائب أخرى خفيفة كل هذا شجع على هجرة الكثير من فلاحي مناطق الحدود المشتركة الخاصة بالمسلمين لأراضيهم واتجهوا إلى المناطق الخاضعة لحكم الفرنج كما كان لكل ضيعة أو قرية رئيس مسلم هو الناظر فيها يقدمه الفرنج على من فيها من عمرها من المسلمين، ولهم فيها مسجد صغير يؤدون فيه صلاتهم[2].

ترأس كل ضيعه أو قرية رئيس مسلم اعتبر هو الناظر فيها يقدمه الفرنج على من فيها من عمارها من المسلمين ولهم فيها مسجد صغير لتأدية الصلاة فيه ومن الممكن أن بعض الفلاحين دفعهم الحنين إلى تلك الأراضي التي هجروها بعد غزو الفرنج ثم استقروا فيها بعد شرط الفرنج عليهم شروطا في ذلك أهمها تأدية الخراج وتقديم الطاعة والولاء للفرنج، كما خضع هؤلاء الفلاحين إلى المحاكم والقوانين والتي كانت تنظر في الضيعات الصغرى التي لا تنطوي من الناحية الجبائية على القتل والتي لا تتجاوز قيمة ما ينظر فيها من الناحية المدنية قطعة فضية[3].

كما جاء في نص الهدنة التي عقدها السلطان المنصور قلاوون وحكام الفرنج في عكا وصيدا وعثليث عام 686هـ/1283م، ما يدل على حرص حكام المسلمين على ضرورة

(1) القلقشندي المصدر السابق، ج 4ص33.

(2) ابن جبير، المصدر السابق، ص302.

(3) زكي محمد حسن، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، القاهرة، 1981، ص 512.

وحدة الفلاحين عودة الفلاحين إلى أراضيهم التي هجروها: أن يناديها في البلاد الإسلامية والبلاد الفرنجية الداخلة في الهدنة: أنه من كان من فلاحي بلاد المسلمين يعود إلى بلاد المسلمين مسلما كان أم نصرانيا، وكذلك من كان من فلاحي بلاد الفرنج مسلما كان أو نصرانيا معروفا قراريا من الجهتين، ومن لم يعد بعد المناداة يطرد من الجهتين، ولا يمكن فلاحوا بلاد المسلمين من المقام في بلاد الفرنج المنعقدة عليها هذه الهدنة، ولا فلاحوا بلاد الفرنج من المقام في بلاد المسلمين التي انعقدت عليها هذه الهدنة، ويكون عود الفلاح من الجهة إلى الجهة الأخرى بأمان[1].

كما تمتع هؤلاء الفلاحين في المنطقة بحرية التنقل بين شطري البلاد ومشروعية بيع منتجاتهم وشراء ما يلزمهم دون اعتداء أحد عليهم[2].

ح. الرسوم الجمركية وطرق تحصيلها:

نصت المعاهدات على الإبقاء على الرسوم الجمركية على ما هي عليه دون زيادة تشجيعا منهم على التبادل التجاري مثال ذلك هذا النص في المعاهدة: «على أنه لا يجدد على التجار المسافرين، الصادرين، والواردين، من الجهتين حق لم تجري به عادة ويجرو على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت تجر به العادة وكل مكان عرف باستخراج الحق فيه استخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين، ويكون تجار والسفار المترددين آمنين مطمئنين من الجهتين في حالتي سفرهم وإقامتهم وصدورهم ووردهم، بما في صحبتهم من الأصناف والبضائع التي هي غير الممنوعة[3].

ووظفت قوانين تنص على عدم التعامل أو نقل السلع المحظورة وذلك ما جاء في المعاهدة الموقعة بين السلطان المنصور قلاوون والفرنج في عكا سنة 681هـ/1283م جاء في نصها: «على أن الممنوعات المعروف منعها قديما تستقر على قاعدة المنع من الجهتين

(1) القلقشندي، المصدر السابق، ج14، ص61.

(2) المصدر نفسه، ج14،ص38.

(3) المقريزي، المصدر السابق، ج1، قسم 3، ص993.

ومن وجد بصحبة أحد من تجار بلاد السلطان وولده من المسلمين وغيرهم على أديانهم وأجناسهم شيء من الممنوعات بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، مثل عدة السلاح وشيء من الممنوعات وغيره، يقاد على صاحبه الذي اشتراه منه ويعاد إليه ثمنه، ويؤخذ ماله استهلاكا، ولا يؤدي ولا يؤذى بسبب ذلك، لا هو ولا ماله، وكذلك إذا طلع تجار الفرنج من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم ووجد معهم شيء من الممنوعات مثل عدة السلاح وغيره يعاد على صاحبه الذي اشتراه منه، ويعاد إليه ثمنه، ويرد ولا يؤخذ ماله استهلاكا، ولا يؤذى، وللسلطان ولده أن يفصلا في من يخرج من بلادهما من رعيتهما على اختلاف أديانهم وأجناسهم بشيء من الممنوعات، وكذلك كفيل المملكة والمقدمون لهم أن يفصلوا في رعيتهم الذين يخرجون الممنوعات من بلادهم الداخلة في هذه الهدنة[1].

كما وضع الطرفان القواعد والقوانين لمحاربة ظاهرة التهرب من بعض الالتزامات المادية المفروضة عليهم، فقد كانوا يفرون إلى بلاد الطرف الآخر ويغيرون دينهم، مثل ما جاء في معاهدة السلطان قلاوون مع فرنج عكا سنة 682 هـ/1283م في نصها: على أنه حتى هرب كائنا من كان من بلاد السلطان وولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة، وقصد الدخول في دين النصرانية وتنصر بإرادته ويرد جميع ما يروح معه ويبقى عريانا، وإن كان ما يقصد الدخول في دين النصرانية ولا ينتصر رد إلى أبوابها العالية بجميع ما يروح معه بشفاعة معه بعد أن يعطى الأمان وكذلك عند حضور أحد من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة ويقصد الدخول في دين الإسلام وأسلم بإرادته، يرد جميع ما معه ويبقى عريانا وإن كان ما يقصد الدخول في دين الإسلام ولا يسلم، يرد إلى الحاكم بعكا، وهو كفيل المملكة والمقدمون بجميع ما يروح معه شفاعة بعد أن يعطى الأمان[2].

خ. الأسواق الموسمية:

(1) المقريزي، المصدر السابق، ج1، قسم 3، ص990.

المقريزي المصدر السابق، ج1 قسم 3ص990.

ارتبطت عمليات التبادل بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية بوجود نوع من الأسواق في المدن الإسلامية والصليبية على حد سواء وهي ما يمكن أن نسميه بالأسواق الموسمية كونه «يقام في زمن محدد ومكان معين»[1]، ومن تلك الأسواق ما كان يرتبط بقدوم الحجاج المسيحيين والذين يكثر تواجدهم وحضورهم للاحتفال بعيد الفصح في مدينة بيت المقدس حيث تشير كثير من المراجع أنه أمام الباب الرئيسي لكنيسة القيامة كان يوجد فيناء كبير والذي كان يقام فيه سوق موسمي عند مقدم الحجاج المسيحيين، حيث تباع فيه الحلى والمسابح والصور الخاصة بالقديس والتحف الشرقية التي يحرص كثيرون من أبناء الغرب الأوروبي على اقتنائها[2].

وقد ارتبطت الأعياد المسيحية والاحتفالات الدينية ببعض الأسواق الموسمية في القدس والتي تخصصت في بيع السلع المستخدمة في تلك المناسبات من ذلك وجود شارع مخصص لبيع سعف النخيل والذي كان كثيرا من الزوار المسيحيين يقومون بشرائه من شارع السعف هذا شارع تصفه بأنه كان يقع على الجهة الجنوبية من كنيسة القديس ستيفن ويتجه شرقا من شارع البطريق إلى شارع التوابل مارا بكنيسة القديسة مريم اللاتينية[3].

كما وجد بالقرب من شارع السعف هذا شوارع أخرى كانت تمد هؤلاء الزوار المسيحيين بحاجاتهم من الشموع التي يوقدونها أثناء دخولهم كنيسة القيامة وأثناء سماع القديس وطوال المدة التي يبقون فيها داخل الكنيسة[4]، كما يبدو أن كثير من زوار بيت المقدس من الفرنج قد حرصوا عند زيارتهم للمدينة على شراء كثير من المزامير التي تصنع في المدينة وكان لها شارع خاص بالقرب من خان الزيت المؤدي إلى كنيسة القيامة حيث

(1) عفاف صبره، المرجع السابق، ص295.

(2) زكي النقاش، المرجع السابق، ص185.

(3) علي السيد علي، المرجع السابق ، ص91.

(4) صبحي لبيب، المرجع السابق، ص 296.

هناك الكثير من المحلات لبيع تلك المزامير والذي تدب فيه الحركة والنشاط في ذلك الموسم من كل سنة وتموج بأعداد كبيرة من زوار المدينة[1].

وبين لنا الرحالة ابن جبير مدى ازدهار الأسواق الموسمية في المدن الصليبية ببلاد الشام في قوله: صعدنا المركب وهو سفينة من السفن الكبار وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد من الإفرنج وصعدت عالم لا يحصى ينتهي إلى أزيد من ألفي إنسان[2].

بالنسبة للمواسم التجارية يجب أن نشير أن هذه المواسم لم تكن قاصرة على المدن والموانئ الخاضعة لحكم الفرنج في بلاد الشام فقط بل أن البعض من المدن الإسلامية كانت تقام فيها تلك الأسواق الموسمية مثل مدينة دمشق التي يذهب إليها الكثير من تجار الفرنج طلبا لمنتوجات البلاد الآسيوية، حيث كانت دمشق في تلك الفترة مركز المنطقة وأهم سوق في ذلك القطر يرجع ذلك لموقعها الجغرافي الممتاز الذي جعل منها نقطة تلاقي البضائع الواردة من بلاد فارس، بلاد النهرين، آسيا الصغرى مع البضائع القادمة من مصر وبلاد العرب، فيما أن دمشق اعتبرت نقطة انطلاق القوافل مثل قوافل الحجاج الذاهبة إلى مكة قافلة الحج الشامي التي كانت تضم العديد من المسلمين من بلاد المختلفة ومعهم منتوجات بلاد العرب وبضائع الهند المستوردة عن طريق عدن[3].

فكان التجار الذين يصحبون هذه القوافل وغيرها من القوافل أقل أهمية يعودون من مكة ومعهم منتجات بلاد العرب وبضائع الهند مما أتيح لدمشق تلقي التوابل الهندية من الجهتين عن طريق الخليج العربي ونهر الفرات وعن طريق عدن ومكة، كما ترد إليها منتوجات غربي أسيا بكميات هائلة ثم أنها كانت تقيم علاقات مع مصر بخاصة بعد أن اتخذت البلدان تحت سيادة الأيوبيين والمماليك وبذلك أتيحت لها فرصة الحصول على منتوجات البلدان الإفريقية التي لها علاقات تجارية مع مصر، وفوق كل هذا التدفق من

(1) فهمي زكي نعيم، المرجع السابق، ص282

(2) ابن جبير، المصدر السابق، ص276.

(3)ف هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ج1، ص204.

البضائع من كل البلاد فكانت دمشق التي سكنها قوم مصر فوق كل هذا التدفق من البضائع من كل البلاد فكانت دمشق التي سكنها قوم بارعون تنتج بنفسها مواد ذات قيمة كبيرة[1].

إضافة إلى سوق الغلال في بيت المقدس التي كانت مكانا فسيحا حيث القمح والشعير والشوفان وغيرها من المحاصيل التي قدم بها الفلاحون المسلمون من المناطق العربية من دمشق والتي كانت تحت الحكم الإسلامي طوال فترة الحروب الصليبية[2]، ونتيجة للأعداد المتزايدة للزوار للأسواق التجارية فقد ارتفعت إيجارات البيوت والمخازن التجارية في فتر الأسواق الموسمية وأحيانا يستمر ارتفاع سعر الإيجار للسنة كلها، وكل ذلك مرتبط بوصول القوافل التجارية وهذه القوافل تزيد من مضاعفة الحركة التجارية[3].

كما انفردت بلاد الشام بنوع من السوق سمي بسوق العسكري الذي أنشأ بسبب المعارك التي كانت تدور بين المسلمين والصليبيين في تلك الفترة، فعند تخطيط العسكر الإسلامي تقام خيمة للسلطان ومن حولها خيم أمراء الجيش ويشترط عند ضرب العسكري توافر المياه في أيدي المسلمين والزاد على تلة أو قرب أو أرض سهلية[4]، فكانت الأحوال العسكرية في عكا سيئة فقد حصلت فيها عدة معارك في سنة 587هـ/1191م، حيث قام المعسكر للمسلمين بجانبه نشاط تجاري كان جنبا إلى جنب مع النشاط الحربي[5].

د. فئات الخدمات التجارية:

(1) الحويري، المرجع السابق، ص143.

(2) براور يوشع، المرجع السابق، ص222.

(3)ف. هايد، المرجع السابق، ص186.

(4) نظير حسان سعداوي، تاريخ الحرب المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1957، ص59.

(5) الحويري، المرجع السابق، ص144.

يرجع الفضل لوجود هذه الفئات بسبب قيام عمليات التبادل التجاري بين الطرفين الفرنج والمسلمين وتمثلت في السمسار، المثمن، المترجم، الحمال، المغربل، الكيال، البريدي وغيرهم وأبناء هذه الفئات لطالما كانوا يعملون في الفنادق في المدن الإسلامية لخدمة التجار الفرنسيين وأيضا في الخانات في المدن الخاضعة لحكم الفرنج ببلاد الشام لخدمة تجار المسلمين[1]، لذلك تشير المصادر إلى أنه هو في المدن الخاضعة لحكم الفرنجة كان في كل مدينة عدد من الموثقين لإعداد الاتفاقيات بين التجار وقد استخدموا فيها اللغة الفرنسية والايطالية، ويمكن أنه وجد معهم المترجمين للغة العربية من أجل تسهيل التعامل، ونذكر أن هذا النوع من الموثقين كانوا من أبناء الفرنج بمختلف الطوائف[2].

ومن المرجح أن هؤلاء الموثقين والتراجم كانوا من أبناء الجاليات الايطالية المختلفة، فقد كان العديد من التجار البنادقة يقيمون إقامة شبه دائمة في المنطقة في فترة الحروب الصليبية فاشتغل العديد منهم بهذه المهن كما وقد تخصص عدد من التجار المسلمين، وتميزت مهمة هؤلاء التراجمة بالتوقيع على البضائع التي تم التخليص عليها وتم دفع الضرائب المستحقة عليها، إلى جانب عمليات الترجمة بين المسلمين والفرنج[3].

فقد كان المترجم معتمدا من الحكومة الإسلامية والفرنجية وثقه عند جميع الأطراف المتعاملين معه، كون هذه التراجم قد شكلت حلقة اتصال هامة بين الفندقي وقنصله وتجاره من جانب الجهات المسؤولة الإسلامية من جانب آخر، وبين الخان وتجار من المسلمين في مدن الفرنج من جانب وتجار الفرنج من الجانب الآخر[4].

(1) أبو شامة، المصدر السابق ،ج1،ص9

(2) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشر د. جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953، ج1، ص1953، ص283 .

(3)ابن جبير، المصدر السابق، ص287.

(4) Rey Emmanuel:Colonic frques en Syri Aux Xiime Siecles, paris, 1883, : OP. Cit. pp. 191, 192.

تشير كثير من المعاهدات التجارية على مدى أهمية هذه الفئة ومكانتها لدى كل من السلطات الإسلامية والفرنجية ونصت على ضرورة حصول أفرادها على مقابل نظير عملهم هذا ويقدر بحسب الاتفاقيات التجارية بحوالي 25% من قيمة ما يشتريه التجار من بضائع من داخل المناطق الجمركية أو ما يعقد من صفقات تجارية بين الطرفين[1]، واستغل بعض أبناء الطوائف المسيحية المحلية في بلاد الشام بمثل هذه الأعمال فيذكر ابن جبير أنه في رحلته عندما وصل ضمن القافلة التجارية إلى مدينة عكا، ونزلوا الدائرة الجمركية هي التي وصفها أنها معدة لنزول القوافل وكان أمام بابها مساطب مفروشة، فيها كتاب ديوان الجمارك من النصارى، بمحابر الأينوس المذهبة وكانوا يكتبون باللغة العربية ويتحدثون بها وكان لهم رئيس يسمى صاحب الديوان[2]، أما في المدن الإسلامية كان على التجار الفرنج اختيار كاتب ملم باللغة العربية مع لغتهم لإعانتهم طوال إجراءات البيع وتسجيل مبيعاتهم ومباشرة العمليات الحسابية مع ضرورة مراعاته عملية وزن البضائع كما نصت المعاهدات على حق التاجر الفرنجي في الاستفادة بخدمات هذه الفئات واختيار من يعمل له بينهم من دون أن يعرض عليه أتاوة من جانب آخر، إضافة إلى حق التاجر الفرنجي في عرض سلعته للبيع في فندقه كما كان للتجار المسلم حق زيارة التاجر الفرنسي في فندقه لفحص سلعته والتعاقد عليها بحضور الشهود، كما لا يجوز التراجع عن العقد إلا بموافقة الطرفين[3].

ويجدر بنا ذكر الدور الفعال للسماسرة الذين استعان بهم التجار الفرنج حيث كان لهم المهام الكبيرة في العصور الوسطى خاصة عصر الحروب الصليبية من بينها إرشاد التجار الفرنج إلى أحسن طرق البيع وأنسب الأماكن لتسويقهم بضائعهم طبقا للعرض والطلب.

(1) صبحي لبيب، المرجع السابق، ص294.

(2) براور يوشع، المرجع السابق، ص161.

(3) عفاف صبره، المرجع السابق، ص145، 155.

كما عمدوا على مساعدتهم على تسويقها مقابل مبلغ مالي على ما يقدموه من خدمات[1]، وفي حال توسط حد هؤلاء الدلالين أو السماسرة في عملية البيع من تاجر فرنسي إلى تاجر وطني قادر ومؤتمن إن هرب الشاري أو عجز عن الوفاء بالدين فالسمسار يصبح هو ضامن وملزوم بالوفاء للتاجر الفرنجي[2].

كما نصت المعاهدات التجارية المبرمة بين السلطات الإسلامية والفرنجة على ضرورة احترام عقد البيع المؤجل بين التاجر المواطن والتاجر الفرنجي سواء كان هذا الاتفاق تم في فندق التاجر الفرنجي أو أسواق المدينة أو ديوان الخمس، ويشترط على العقد أن يكون مكتوبا أو مشهودا عليه[3].

والسمسار كان ملزما بالدفع في حالة عدم نفاذ العقد لانسحاب أحد الأطراف من تنفيذه فهذا الالتزام وهو التزام الوسط فحسب[4].

وبالحديث عن فئة الحمالين والكيالين والمغربلين فقد عملوا على انتظام عمل الفندق والخان وحتى الأسواق التجارية مما اثر على أسعار السلع المتبادلة فالتعامل مع الحمالين الثقاة يضمن نقل تلك السلعة أو غيرها دون فقدان شيء منها[5].

وتوجد فئة تسمى بالمنادين تمثلت مهمتهم في النداء على البضائع الخاصة بالتجار الأجانب عن طريق ذكر محاسنها ويدفع له التاجر مستحقاته، كما وقد استعانوا بهم إلى جانب المترجمين والكتاب كشهود على عقود البيع والشراء التي تتم بينهم[6].

كما أكدت السلطات الإسلامية على هذه الفئات بضرورة حسن معاملة التجار الفرنج ففي سنة 701هـ/ 1302م اصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوم لتجار البنادقة

(1) صبحي لبيب، المرجع السابق، ص295.
(2) عفاف صبره، المرجع السابق، ص290.
(3) ابن جبير، المصدر السابق، ج ص285.
(4) صبحي لبيب، المرجع السابق، ص294.
(5) عفاف صبره، المرجع السابق، ص154.
(6) علي السيد علي، المرجع السابق، ص89.

في مملكته على أن يكون مطمئنين بأن لن يسبب لهم شخص ضيقا ولن يمسهم شخص بسوء[1].

وبالنسبة لأهم فئة في مجال الخدمات هي فئة البريديين التي احتاجوها في الفنادق والخانات فقد تم العثور على وثيقتين في دار الوثائق بالبندقية تدعمان الرائي بمدى أهمية هذه الفئة في مجال الخدمات بين الشرق والغرب عامة وبين الفندق ونزلائه خاصة ذلك فيما يخص اتصالهم بعواصم مصر والشام وموانيها ومراكز التجارة فيها[2].

تسببت الحروب التي نشبت بين المسلمين والفرنج في عرقلة القوافل الإسلامية الآتية إلى بلاد الشام أو تخرج منها إلا أنها من ناحية أخرى ضاعفت النشاط التجاري مع الغرب الأوروبي بوجه خاص عن طريق الموانئ البحرية التي سيطر عليها الفرنج في بلاد الشام وقد كان العامل التجاري يدفع المسلمين والفرنج إلى عقد هدنة أو صلح بغية استئناف التجارة دون عائق[3]، ودليل ذلك ما يذكره ابن القلانسي أنه في سنة 507هـ _1116م أن الأمير الطهير الدين أتابك دمشق قام بالاتصال بملك بيت المقدس بلودوين لتعمير الأعمال بعد الخراب تأمن السوابل من شر المفسدين فاستقرت هذه الحال بينهما واستحلف كل واحد منهما صاحبه على الثبات والوفاء وإخلاص المودة والصفاء وأمنة المسالك والأعمال وصحة الأحوال وتوفر الاستغلال وما يذكره عن سنة 514 هـ_1119م من قول: فيها وقعت المهادنة بين نجم الدين ابن غازي ابن أرتق صاحب حلب وبين الإفرنج وتقررت الموادعة المسالمة و كف كل جهة من الفريقين عن أذية عن الآخر[4].

فقد أثارت هذه الظاهرة عجب الرحالة ابن جبير الذي اتجه من مدينة دمشق إلى عكا التي كانت بأيدي الفرنج، وكان ضمن قافلة كبيرة للتجار والمسافرين بالسلع فقال: من أعجب ما يتحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وبسببهم يدخل إلى بلاد

(1) صبحي لبيب، المرجع السابق، ص295.

(2) المرجع نفسه، ص295.

(3)علي السيد محمود، المرجع السابق، ص31.

(4) ابن القلانسي، ذيل دمشق، ص190.

المسلمين[1]، وقد حرص حكام المسلمين على قيام علاقات سليمة مع الفرنج كي يتم التبادل التجاري بين الطرفين بما فيها من مصلحة مشتركة، سنة 567هـ _1160م قام نور الدين محمود بمهادنة حكام الفرنج في أنطاكيا حيث نسي حيث سن للمسلمين خاصة أهل حلب والموصل تصدير بعض السلع التي يتاجرون فيها إلى مصر أو يستوردونها من مصر عن طريق ميناء اللاذقية الخاضع لهذه الإمارة، بالرغم من الفرنج في هذه السنة كانوا قد طمعوا في مركبين من مصر إلى الشام فأرسلت لمدينة اللاذقية وهما مملوءتان من الأمتعة والتجار نكثوا عهدهم، مما دفع نور الدين إلى مهاجمة بلادهم إلا أنه عندما راجعه الفرنج وبذلوا جميع ما أخذوه من المركبين وطلبوا منه تجديد الهدنة معهم فأجابهم إلى ذلك بعد أن أعادوا ما أخذوه[2].

ونجد العديد من الدلائل التي تشير إلى التأثير القوي للمصالح التجارية في تفضيل قيام علاقات سليمة مثال ذلك ما حدث أيام صلاح الدين الأيوبي عقب استيلائه على بيت المقدس سنة 583هـ 1187م، فكان سره الدخول في مفاوضات سلام من أجل الصلح مع الفرنج ولعل الدافع إلى ذلك يتمثل في سوء الأحوال الاقتصادية الناجم عن كثرة الحروب التي خاضتها البلاد ضد الفرنج وما نجم عنها من نطاقات هائلة وأزمات اقتصادية سببها العمليات الحربية فضلا عن تعطيل مصالح كثير من التجار والزرع أثناء تلك الحروب ولم يكن الفرنج أقل رغبة منه في السلام بغض الأسباب وعندما ساد السلام في الأراضي المقدسة انصرفت جهود الطرفين إلى تدعيم العلاقات التجارية بينهما[3]، كما حدث في عهد أخيه السلطان العادل حيث كان العادل من جانبه حريصا على إنهاء القتال بين المسلمين بقيادته والفرنج بقيادة ملك بيت المقدس لأنه من المحقق أن العادل أدرك أن دولته سوف تحقق الربح باستئناف التجارة مع الساحل الفرنجي من بلاد الشام ولذا لم يكن العادل مستعدا

(1) ابن جبير، المصدر السابق ، ص276، 277.

(2) ابن الأثير، المصدر السابق ،ج9، ص113.

(3) علي سيد علي محمود، المرجع السابق، ص132.

فحيّن التجارة مع الفرنجيين من بلاد الشام، ولذا لم يكن العادل مستعدا فحسب للتخلي عن بيروت وصيدا لأمر مزيليك بل أنه تنازل عن يافا والرملة، ويسر الإجراءات للحجاج المسيحيين الذين قصد بيت المقدس والناصرة في المعاهدة التي أبرمتها سنة 1204م لمدة ست سنوات[1].

إضافة إلى الهدنة المنعقدة بين الطرفين في السنوات 1198، 1204، 1210، 1211، 1213م، التي كانت طبعا في زمن العادل، كما حرص البنادقة على الحصول على امتيازات تجارية من كافة الأمراء الأيوبيون في مصر والشام[2].

كما أدرك المسلمون أهمية قرب الموانئ الخاضعة للفرنج مما يعود عليهم من مزايا تجارية لذلك لم يخاطروا بقطع طريق التجار بين الشرق والغرب كما حرصوا بصفة خاصة على كفل الرخاء المادي لرعاياه[3].

كما كان الفرنج أيضا مدركين لمصالحهم التجارية فقد حققوا المكاسب الضخمة بفضل هذا التبادل التجاري بفضل قيامهم بدور الوسط التجاري بين الشرق والغرب فقد توفرت لهم منتوجات الشرقين الأقصى والأدنى مما جعلهم يسمحون للتجار المسلمين بالقدوم بمتاجرتهم إلى الموانئ الخاضعة لحكمهم على الساحل وضرورة حسن معاملتهم فنمت الصداقة بين الطرفين فطائفة الداوية التي اشتهرت به من نشاط مصرفي ضخم أرادت التوسع في أعمالها المصرفية لتحمل العملاء المسلمين الاشتراك فيها وقد اتخذت عمالا وموظفين اختصوا بأمور المسلمين[4].

فقط لعبت التجارة دورا هاما في التقليل من الحدة الدينية التي كانت بين الطرفين فسرعان ما التزم الجانبين بصورة ضمنية قيودا تمنع إتلاف لأشجار الفواكه وإبادة

(1) ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص88.
(2) ابن الأثير، المصدر السابق، ج3، ص9.
(3) ستيفن رنيسمان، المرجع السابق، ص365.
(4) ابن الأثير، المصدر السابق، ج12، ص511.

المحصولات الزراعية وتقيدوا بها في أغلب الأحيان بإخلاص[1]، ولعل خير دليل على آثار التبادل التجاري في المدن الإسلامية في بلاد الشام تظهر من خلال النمو السريع الذي شهده الازدهار المادي في بلاد الشام والاتساع البارز في مجالات الثقافة من أدبية، فنية وفكرية طول عصري الأيوبيون والمماليك البحرية والذي تحقق إلى حد كبير بفضل السياسة المستنيرة التي انتهجها حكام المسلمين من أجل تشجيع التطور الزراعي والصناعي، بالمحافظة على العلاقات السلمية مع دويلات الفرنج في بلاد الشام[2].

وعمليات التبادل التجاري بين المسلمين والفرنج لم تنقطع حتى بعد طرد الفرنج من بلاد الشام أواخر القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي بل ظلت كما هي فقد كثر ترددهم على المدن والموانئ الإسلامية حتى أواخر عصر السلاطين المماليك[3].

(1) قدري قلعجي، المرجع السابق، ص610، 611.

(2) علي سيد علي محمود، المرجع السابق، ص134.

(3) ابن طولون، إعلام الورى بمن ولى نائما من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح: عبد العظيم حامد خطاب، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، 1977م، ص95.

الفصل الثالث:

تداعيات الحروب الصليبية على بلاد الشام

أولا: التأثيرات الاقتصادية

ثانيا: التأثيرات الاجتماعية

ثالثا: التأثيرات الفكرية والثقافية

رابعا: التأثيرات السياسية

خامسا: التأثيرات الدينية

أولا: التأثيرات الاقتصادية:

أ. المراكز التجارية والموانئ:

لطالما كانت التجار المجال الذي تجلت فيه الآثار السلبية للحروب الصليبية كونها كانت بين الشرق وأوروبا تسير في اتجاه واحد لصالح الشرق، لكن نجاح الحملة الصليبية الأولى أدى إلى تحول جميع موانئ الساحل الشرقي للبحر المتوسط إلى السيطرة الأوروبية حتى عام 1187م عندما نجح المسلمون بقيادة صلاح الدين في استرداد معظم مدن الساحل ثم بقيت بعض الموانئ بيد الصليبيين أهمها عكا، حيث استخدموا هذه الموانئ عسكريا وتجاريا كما استخدمت كمراكز تجارية[1]، فقد ساعد حسن موقعها وحصانتها ووفرة النشاط التجاري حولها على سهولة الحصول على ما يلزمها من السلع والمواد الخام[2].

تمكن الصليبيون أيضا من الاستيلاء على مدينة عسقلان إلا أنه لم يتم إخضاع الساحل كله للصليبيين إلا بعد نصف قرن من الحملة الصليبية الأولى[3]، وكان الميناء الرئيسي هو ميناء عكا الذي كان على خط مستقيم وغير عميق، كما كان يتمتع بالحماية من جهات الشمال، الشرق، الجنوب، وبه مخبأ من العواصف ورسو مريحا، كما أنه يقع في نهاية طريق التجارة البرية المارة من آسيا الوسطى إلى سواحل البحر المتوسط عبر الشام فيصل فيصفها الرحالة ابن بطوطة[4] بقوله: كانت قاعدة بلاد الإفرنج بالشام ومرسى سفنهم تشبه القسطنطينية العظمى.

كما وجد ميناء مهم بمدينة صور كونه لعب دورا في تجميع معظم المنتجات الشرقية فيه فكان به قسم داخلي ترسو به السفن المحلية الصغيرة، وميناء خارجي للسفن التجارية

(1) مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ الحروب الصليبية الأسباب، الحملات، الآثار، دار سامة، ط1، الأردن، 2004، ص275.

(2) هنادي السيد، المرجع السابق، ص192.

(3) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق ص115_179

(4) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، ط1، بيروت، 1407 هـ/1987م، ج1، ص79.

الكبرى، وبين الميناء يوجد برج من الحجارة القوية بينهما سلسلة ضخمة من الحديد بغية منع دخول السفن حتى لا يسمح لها بالدخول[1]، وطرابلس التي كانت بمثابة الوسيط التجاري بين الداخل والخارج هذا قبل الغزو الصليبي فيما بعد قد أصبح الشحن منها إلى موانئ الغرب إلى ايطاليا وجنوبي فرنسا منتجات بلاد الشام والشرق[2]، حيث اهتم الايطاليون بجمع الأموال واستثمارها في موانئ الشام ثم وصلوا إلى الإسكندرية وأقاموا فيها بقبول وموافقة الحكومة المصرية، حيث ظلت مصر في هذه المرحلة تتحكم بالتجارة والعبور بين أوروبا والهند والبلاد العربية، رغم كون المنتوجات الهند سربت عبر عكا إلى أوروبا، وكان لابد للمسلمين أن يفسحوا المجال لتجار البحر المتوسط لصالح القوى التجارية الأوروبية النامية وأخذت هذه القوى تتوسع على حساب المسلمين[3]، كما لعب ميناء بيروت دوره أيضا في التجارة كونه يستقبل السفن التجارية الأوروبية فقد تردد عليه التجار في مواسم التجارة محملين بالسلع الشرقية ليعودوا محملين بالسلع الغربية[4].

أما ميناء يافا الذي كان يقرب من بيت المقدس فقد عرف وصول العديد من السفن المحملة بالحجاج وحتى التجار، وقد اتسع هذا الميناء سنة 504 هـ/1110م لستين سفينة وهو عدد سفن الأسطول العسكري الذي وصل بقيادة سجوارد النرويجي[5].

وقد تركزت الحياة الاقتصادية في موانئ المستعمرات الصليبية في منطقتي منطقة السوق ومنطقة الميناء، وكان ربابنة السفن التجارية القادمة من المدن الايطالية في رحلة بحرية تستغرق ثلاثة أسابيع يستعيدون بخرائط البحر والتعليمات البحرية المكتوبة في الوصول إلى مشارف الميناء، حيث يرسل حراس القلعة إشارات إلى رؤسائهم وتقرع أجراس

(1) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص60.

(2) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، المرجع السابق، ص16.

(3) مفيد الزيدي، المرجع السابق، ص20.

(4) هنادي السيد، المرجع السابق، ص192.

(5) عبد الرحمن الطحاوي، المرجع السابق، ص130.

الكنائس[1]، وعند وصول السفن التجارية يتم ربطها بالحبال في مراكز الميناء ثم تأخذ القوارب الخفيفة في نقل البضائع إلى الأرصفة[2]، وبمساعدة المحليين الذين كانوا في العائد سكان المولدين الذين عرفوا باسم بولان الميناء"Poulain do the port"[3].

أما عن الإجراءات الخاصة بالموانئ الصليبية اتجاه السفن الايطالية فقد كانت تتم عبر مراحل أربعة الأولى هي إنزال البضائع على رصيف الميناء، والمرحلة الثانية تسجيل هذه البضائع في سجلات خاصة، ثم وضعها في المخازن، وأخيرا مرحة البيع في الأسواق[4].

إلا أن الأوضاع قد تبدلت في القرن الثالث عشر الميلادي بسبب ظهور عامل الجديد هو العامل المغولي، فقد سلك المغول الطريق التجاري المعروف بطريق الحرير الممتد عبر الإمبراطورية المغولية من الصين إلى تركستان على البحر الأسود، أو ميناء إياس على البحر المتوسط[5].

كما أدى غزوهم للعراق لقتل طريق الحج العربي فبغداد فدمشق، الأمر الذي أثر في المركز التجاري لموانئ الشام تأثيرا خطيرا، أما طريق البحر الأحمر ومصر فقد ظل بعيدا عن الخط المغولي، وعليه فقط تركز فيه الجزء الأكبر من تجار الشرق الأقصى، كما صارت الإسكندرية ودمياط مركز النشاط التجاري الكبير تقصدها سفن المدن الايطالية مثل: البندقية، بيزا، جنوة وحتى المدن الفرنسية، كل هذا من أجل العناصر الرئيسية في التجارة في ذلك الوقت والتي تمثلت فيها التوابل والبخور التي كانت مواد أساسية في استهلاك كل بيت في أوروبا[6].

(1) الطحاوي، المرجع السابق، ص131.

(2) Smith, the Feudal Nobility, p92, Benevenisti, op.cit, p77.

(3) الطحاوي، المرجع السابق، ص131.

(4) Smith, the Feudal Nobility, p92. Idem "crournement in Latin Syria", p112.

(5) علي سعود عطية، الحروب الصليبية، الشركة العربية المتحدة للتسويقات، ط1، القاهرة، 2010، ص340.

(6) المرجع نفسه، ص340.

ب. الأحياء التجارية الايطالية:

تأثرت الأحوال الاقتصادية في بلاد الشام بسبب الحروب الصليبية تأثيرا كبيرا بسبب طول مدة القتال فنتج عنها تخريب المدن وتعطلت الصناعة كما، أقفرت الحقول من الزراعة واختل الأمن ليصبح الناس عرضة لسلب والنهب ومصادرة الأموال ذلك وأنه على الرغم من أحد أسباب قيام الحروب الصليبية هو تحقيق مكاسب اقتصادية في الشرق الأدنى[1].

في حين عرفت التجارة في الغرب الأوروبي انتعاشا كبيرا كونها وجدت العديد من المراكز التجارية غرب أوروبا ووسطها وحتى جنوبها، فلعبت المدن الإيطالية الدور الأكبر في تطوير التجارة بفضل موقعها الجغرافي القريب نسبيا من الموانئ الإسلامية في الشام ومصر، وأيضا لحاجة هذه المدن للبحث عن موارد اقتصادية إضافية خارج حدودها[2]، كل هذا أدى إلى تطور كبير للمدن التجارية، وأدى إلى نهضة المجتمعات في جنوب أوروبا وأيضا إقامة اتحادات تجارية في المنطقة، وانتعشت المدن الايطالية بالبندقية، جنوة، بيزا، نابولي، سالوني، أمالفي، باري، وازدهرت التجارة في بالرمو في جزيرة صقلية، إضافة إلى هذا أنه في وقت متأخر حظيت مدن غرب البحر الأبيض المتوسط كمرسيليا وناربون ومونيلة بشهرة تجارية[3].

وأول المدن التي ساعدت الصليبيين على الصعيد العسكري كانت جنوة[4]، واستفادت من هذه المساعدات بحصولها على حق ملكية ثلاثين منزلا في مدينة أنطاكية وسوق خاص بهم وحتى حق امتلاك كنيسة تخصهم[5]، كما كان لهم الحق في امتلاك فندق، بئر، فرن،

(1) رشا عبد الفتاح محمد حسين، الآثار الاجتماعية للحروب الصليبية دراسة على مجتمعات بلاد الشام، مذكرة ماجستير، جامعة الزقازيق، كلية الآداب، 1427هـ/2006م، ص93.

(2) Painter. S, Weston Europe on the eve of the Crusades. "in setton, vol, pp; 4, 5.

(3) عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص159.

(4) ويليام الصوري، المرجع السابق، ص316.

(5) مصطفى حسين محمد الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى 1595-1171م/ 488-567هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981، ص319.

أيضا مستودع ضخم لبضائعهم، وإعفائهم من جميع القوانين والرسوم السائدة في المدينة، واعتبرت هذه الاتفاقية أو قائمة الامتيازات التي استطاعت جنوة الحصول عليها في بلاد الشام ولم تكن الأخيرة[1]، واستطاعت أيضا بفعل ما عقدته جنوة من اتفاقيات مع الصليبيين مقابل تدخلهم في الدفاع عن الوجود الصليبي في الشرق ومساندته وتوسيع رقعته أن أمكن أن تجعل من مدينة جبيل مستعمرة جنوبية تحت إشراف أسره أمبرياتشي Ambriaci[2].

أما البندقية فقد كانت من أبرز المدن البحرية التجارية التي أسهمت إسهاما مباشرا في إنجاح المشروع الصليبي وفي استقراره في الشرق العربي كون الأساطير الخاصة بها ساعدت في الاستيلاء على العديد من الموانئ الساحلية الهامة في بلاد الشام بالتأكيد مقابل هذا حصلوا على العديد من الامتيازات التجارية والقانونية التي أسهمت في الحفاظ على هويتهم داخل نسيج التكوين الاجتماعي للمستعمرات الصليبية[3].

كما تميزت علاقة البنادقة بغيرهم في تلك الفترة بالصفة التجارية فكان هدفهم الكبير الكسب المادي دون الاكتراث بالعوامل الدينية إلا بالمقدار الذي يحقق مصالحهم وكان شعارهم لنكن أولا بنادقة ثم بعد ذلك مسيحيين[4].

وبالنسبة لمدينة بيزا لم تكن تهتم بالتجارة في المستعمرات الصليبية في الشام وفلسطين فقط بل امتد نشاطهم التجاري إلى العالم الإسلامي فقد كانت هناك علاقات خاصة بين صلاح الدين والبيازنة فسمح لهم بالتبادل التجاري مع مصر[5]، فالمساعدات التي قدمتها

(1) مصطفى حسين محمد الكناني، المرجع السابق، ص 319.

(2) عفاف صبرة، المرجع السابق، ص181.

(3) عبد الحافظ عبد الخالق البنا أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 1427هـ/2007م، ص21

(4) ابن جبير، المصدر السابق، ص211.

(5) cahen, Qorient latain et Commerce du levant, p3 34.

للصليبيين استطاعوا الحصول على امتيازات عديدة مثل شارع أنطاكية وحي اللاذقية والى جانب حرية التجارة والعمل في جميع الموانئ الأنطاكية[1].

وشهدت مدينه فلورنسا بنشاط تجاري واسع فقد كان لها فن فنادقها الخاصة بها أما أنطونا وغيرها من المدن التجارية الايطالية لم تستطيع منافسة المدن الأخرى تجاريا مثل البندقية لذلك اختصرت امتيازاتهم على أحياء ومناطق خاصة لهم في بلاد الشام[2].

ومدينة نابلي التي حصلت على حي خاص بهم وحصلت على العديد من الإعفاءات الجمركية والتسهيلات التجارية[3]، كما مارست أمالفى أيضا دورها التجاري في فترة المستعمرات الصليبية في الشام فاحتفظت بامتيازاتهم التجارية والعقارية السابقة على الحروب الصليبية فظل المستوصف الموجود في أنطاكية بأحد مهم، إضافة لعدة منح بسيطة حصلوا عليها من أمراء أنطاكية النورمان من ذلك حصولهم على ترخيص لممارسة التجارة البحري[4].

أما بالنسبة للتنظيم الداخلي لهذه المدن التجارية فقد عاشت تلك الجاليات التجارية داخل أحياءهم الخاصة ومارسوا نشاطهم[5]، ويختار السيد الأعلى للقومون من الحي والمالك لكل الممتلكات الحقيقية داخل نطاق القومون ومركز القومون هو القصر الذي يسكن فيه القنصل أو الفيكونت فهو حاكم مرسل من المدينة الأم يسانده مجلس في تمثيله لمصالح القوميون وهو الوسيط بين القوميون والملك، وأيضا كان مسؤولا عن إدارة ممتلكات القوميون والحفاظ على امتيازاتهم في المدينة[6].

(1) عفاف صبره، المرجع السابق، ص31.

(2) المرجع نفسه، ص215، 216.

(3) المرجع نفسه، ص109.

(4) ف. هايد المرجع السابق، ص109.

(5) رشا عبد الفتاح محمد حسين، المرجع السابق، ص103.

(6) المرجع نفسه، ص103.

1. الطرق التجارية والحصون:

سيطر الفرنج على الطرق التجارية المختلفة الرابطة بين مدن وأقاليم بلاد الشام بعضها البعض أو ما يربط بين بلاد الشام ومصر[1]، وخلال العصور الوسطى استخدمت الطرق التجارية المعتادة لأغراضها العسكرية وتحركاتها الحربية[2]، فقد أولى الحكام الصليبيون اهتماما كبيرا بحراستها وصيانتها كونها كانت حيوية للتجارة والتواصل بين مختلف الأقاليم التي استقروا عليها فقد انقسمت هذه الطرق إلى طريقين:

1. **الطرق الرئيسية:** وهي الطريق طرق الملكية التي حلت محل الطرق الرومانية القديمة.
2. **الطرق العامة:** التي عرفت بالطرق القروية[3].

فمن الطرق الرئيسية للتجار نذكر الطريق الرابط بين عكا ومدينة المقدس فيمر عبر المدن الناصرة وحنين ونابلس، فقد أطلق عليه اسم الطريق العلوي، وكان هناك طريق آخر يربط عكا بمدينة المقدس ويمر عبر قيصرية والذي سمي بطريق الساحل[4].

ولا ننسى مدى أهمية الرها التي استولى عليها الفرنج عام 1098م بسبب وقوعها إلى الشرق من نهر الفرات وقد تمتعت بأهمية استراتيجية كونها على اتصال وثيق ببلاد الأرمن من جهة ومن جهة أخرى كونها شديدة القرب من الطريق التجاري الكبير الممتد على الفرات إلى الرقة ومنها يتفرع إلى طريقين أحدهما يتجه إلى أنطاكية والآخر لدمشق، وبالتالي استولى الصليبيون على حصنين (الراوندان وتل باشر) حيث الراوندان يتحكم في الطريق المؤدية إلى أنطاكية التي تتحكم في الطريق التجاري القادم من المدن الواقعة على نهر دجلة كالموصل وبغداد والبصرة[5].

---

(1) علي السيد علي، المرجع السابق، ص14.

(2) يوشع براور، المرجع السابق، ص350.

(3) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، المرجع السابق ص49.

(4) المرجع نفسه، ص50.

(5) علي السيد علي، المرجع السابق، ص14.

إضافة إلى الطريق الرابط بين القدس ويافا حيث يمر بمناطق ذات طبيعة جبلية إلى أن يصل إلى السهل الساحلي وبلغ امتداده سبعة وستين كلم[1]، ويوجد طريقان من حما بجانب الساحل غرب الشام والآخر في الجنوب ينتهي إلى دمشق، كما يوجد طريق من مصر إلى الشام عبر أراضي المستعمرات الصليبية فهو طريق تجاري يبدأ من القاهرة فبلبيس فالعريش فرفح فغزة فالرملة و الجون إلى طبرية حتى يصل دمشق وبانياس كانت بمثابة نقطة الحدود بين الأراضي الإسلامية والممتلكات الصليبية وتقع أيضا بين الطريق التجاري الواصل ما بين دمشق وصور، حيث كانت تخرج القوافل من دمشق عبر بيت جن إلى بانياس إلى تورون وحصن هونين أو تبنين إلى مدينة صور[2].

والطرق الممتدة من الشرق إلى الغرب لبلاد الشام وجد طريق من مدينة الرقة مارا سومسياط الرها وحران ومن مدينة الرقة يمتد الطريق التجاري عبر مجرى نهر الفرات حتى إلى الغرب ثم يبتعد وينحرف طريق القوافل لكي يصل إلى حلب[3]، وتوجد الطرق الداخلية تمتد من غزة إلى الخليل فتل الصافية فالكرك أو من غزة إلى جنين وتبنين وحيطين وصفد أو من غزة إلى دمشق عبر اللد وجنين وزرعين فعين جالوت وبيسان وأربد، وكذلك الطريق الذي يربط ما بين الرملة وبيت المقدس مرورا ببسان ونابلس بالإضافة إلى طرق حلب، أنطاكية، اللاذقية، صور، القدس، طبرية وعكا[4].

كذلك الطريق التجاري الذي يبدأ من طرابلس عبر بانياس والعليقة والرصافة إلى اللاذقية[5]، بالإضافة إلى الطريق البري الذي اعتمد عليه الحجاج والتجار ما بين بيت

(1) محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099-1187م، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 1992م، ص96.

(2) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1999م، ص136،137.

(3) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، المرجع السابق، ص51.

(4) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، المرجع السابق، ص139.

(5) القلقشندي، المرجع السابق، ج14، ص385.

المقدس وميناء يافا، كما يمكن القول أن مرور الحجاج عبر هذه الطرق البرية جعلها تحتفظ لنفسها بالأمان اللازمة لمرور القوافل التجارية بسلامة ما بين المدن الداخلية: القدس، الناصرة، الجليل، إلى موانئ عكا ويافا[1].

أما بالحديث عن الحصون فقد قام الصليبيون خلال الفترة الممتدة من الربع الثاني من القرن السادس هجري والقرن الثاني العشري العشر الميلادي ببناء القلاع وتعزيز المستوطنات لضمان سلامتهم وحماية ممتلكاتهم من الإتلاف[2]، فشيدت القلاع الصليبية في المناطق الزراعية الخصبة بغيت استيلاء الصليبيين عليها كونها مثلت موردا اقتصاديا هاما[3].

استولى الصليبيون على البعض من القلاع والحصون المتحكمة في الطرق التجارية مثال ذلك قلعة حارم التي تقع إلى الغرب من مدينة حلب وحصن شقيف أرنون وهو حصن بين دمشق والساحل كونه جبل مطل على بيروت، بالإضافة إلى حصن بارين المتحكم في الطريق التجاري بين حماه وحلب وبين حماة وبلاد العراق وشمال الشام[4]، بالإضافة إلى قلعة تبنين المتحكمة في الطريق الرابط بين صور وبانياس ودمشق وقلعة بيسان التي كانت تتحكم في الطريق الواصل بين سهل جرنل زرعين، ونهر الأردن التي استولى عليها الفرنج سنة 492هـ/1990م[5].

ج. آثار التبادل التجاري عند المسلمين:

شهد العالم الإسلامي في بلاد الشام حالة انتعاش اقتصادي كبير يرجع الفضل في هذا إلى عمليات التبادل التجاري بين المسلمين والفرنج كونه رغم الظروف القاسية التي مرت بها الكثير من مدن الشام في تلك الفترة فقد اتسعت ثروات نسبة كبيرة من أهلها وظهرت

(1) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، المرجع السابق، ص137.

(2) يوشع براور، المرجع السابق، ص342.

(3) محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص79.

(4) علي السيد علي، المرجع السابق، ص15.

(5) المرجع نفسه، ص16.

عليها علامات الثراء[1]، تذكر لنا المصادر المعاصرة أن نور الدين محمود قد تصدى على تصدق على فقراء المسلمين في بلاد الشام سنة 569هـ/1173م هي السنة التي توفي فيها بما زاد عن ثلاثين ألف دينار وهو مبلغ بلا شك كبير بمقاييس ذلك العصر[2].

كما يذكر لنا ابن شداد استنادا إلى ما ذكر صلاح الدين الأيوبي قبل توليه السلطة في قوله: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى أسد الدين شيركوه والذي كان لا يفعل شيئا إلا بمشورته وقال: امضي إليه وقل له: قد خطر ببالي أن أبطل الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس وخذ رأيه في ذلك... فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه اتباعا لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، هذه المكوس والضمانات كان يتم جمعها من حلب وعزار وتل باشر والمعرة، ودمشق وسنجار والرحبة[3].

كما أمر نور الدين محمود بإعفاء التجار من المكوس التي يدفعونها وهذا تشجيعا للتجار وليقوم بدورهم على تخفيض أسعار السلع والإكثار من عدد التجار الذين يترددون عليهم وعلى البلاد لشراء ما يصل إليها من منتوجات البلاد الأخرى والسلع التي يتم إنتاجها محليا[4].

كما قرر في عهد المماليك على ضرورة حمل التجار الأجانب لجوازات السفر التي كانت بمثابة أمر من السلطان يبرزونها للسلطات الإسلامية عند دخولهم المناطق وقد كان الهدف منها تسهيل سفر هؤلاء التجار وتأمينهم طوال فترة تواجدهم في أملاك السلطان[5]، كما اعتبرت الاحتفالات العامة والخاصة مظهرا من مظاهر الثراء مثل الأعياد الدينية التي تمثل أعياد عامة شارك فيها كافة المسلمين من بينها عيد الفطر، عيد الأضحى، مولد النبي

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ص257.

(2) أبو بكر بن أحمد بن محمد بن قاضي شهبة (779-851هـ)، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تح: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص40.

(3) ابن شداد، المصدر السابق، ص27.

(4) ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص46.

(5) علي السيد علي محمود، المرجع السابق، ص130.

صلى الله عليه وسلم بالإضافة إلى شهر رمضان المبارك، كما اشتهرت المنطقة بالاحتفالات الخاصة أيضا كحفلات الختان من بينها احتفال نور الدين محمود بن زنكي عند ختان ابنه الملك صالح إسماعيل في عيد الفطر عام 569هـ/1173م فقد زينت مدينة حلب في تلك المناسبة، وختن معه جماعة من أولاد الأمراء وأخرج نور الدين في تلك المناسبة صداقات كثيرة وكسوات الأيتام[1].

أما عامة الأهالي فقد احتفلوا بحفلات الختان باحتفالات كبيرة ويختم الحفل بتلاوة المولد النبوي الكريم[2].

يبدو أن الحياة الاجتماعية لم تتسم بالجفاف والقسوة على الرغم من أن هذه الفترة اعتبرت فترة جهاد وتضحيات وحرب فسكان بلاد الشام لم يبخلوا على أنفسهم من وسيلة للترفيه عن أنفسهم كالخروج في نزهة عند شواطئ الأنهار والبرك والمروج والبساتين وكلها أماكن مملوءة بأصحاب الملاعيب والمضحكين وعروض خيال الظل[3].

وبالنسبة للمنشآت العامة نتطرق إلى الحمامات التي لم تكن مجرد مكان للاستحمام والنظافة فقط بل اعتبرت في تلك الفترة مراكز اجتماعية هامة كان لها الدور في عقد العديد من الصفقات التجارية وتبادل الأخبار فضلا أن ربعها كان يخصص أحيانا للإنفاق على بعض المؤسسات التعليمية كالمدارس والمكاتب وغيرها بالإضافة إلى الأوقاف الكثيرة التي تم حبسها على أبناء المسلمين من مشارقة ومغاربة على حد سواء ودور القرآن والحديث والمساجد وغيرها[4].

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ص34.

(2) علي السيد علي محمود، المرجع السابق، ص130.

(3) ابن العديم، المصدر السابق، ص34.

(4) ابن جبير، المصدر السابق، ص27، 81.

ح. الإقطاع في بلاد الشام:

بدأ الصليبيون في تأسيس الإمارات التي تمثلت في إمارة الرها، أنطاكية، طرابلس، بيت المقدس اللاتينية، وهذا عند وصولهم إلى بلاد الشام خلال الحملة الصليبية الأولى (489-492هـ/1096-1099م) مما أسهم في ظهور السمات الأساسية لنظام السياسي الصليبي[1] المتمثل في نظام الإقطاع[2]، وقد كان هذا النظام الوحيد الذي كان الأوروبيون يعرفوه في موطنهم، لذلك عمل منذ البداية على تطبيقه داخل المملكة اللاتينية[3]،كما تم تعديله لكي يناسب ظروف واحتياجات الشرق[4]، لهذا فقد اعتبر البناء السكاني للإقطاعات الصليبية مختلفا عن الشكل الأوروبي الذي كان يعرفه النبلاء الصليبيون[5].

فإلى جانب الملك الذي كان على رأس الهرم الإقطاعي ومن بعده الأمراء[6] فقد شكل شمل أيضا الفرسان سكان المدن في القمونات التجارية الايطالية، المسيحيين الشرقيين والمسلمين واليهود والدروز والحشاشين والسامرة[7].

كانت الإقطاعات وضياع والقرى تمنح من طرف الملوك لأتباعهم لضمان الدخل لهم من أجل القيام بواجباتهم العسكرية[8]، والسيد الإقطاعي الأعلى لهم هو الملك الصليبي[1].

---

(1) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، المرجع السابق، ص27

(2) الإقطاع هو نظام اقتصادي اجتماعي وسياسي عم أوروبا في العصور الوسطى وهو امتلاك حق التصرف في الأراضي وراثيا لقاء حسابات تؤدى لصاحب الأرض الأصلي، ينظر: ثامر مكي علي، محاضرات التاريخ الحضاري للعصور الوسطى الأوروبية المرحلة الأولى، المحاضرة التاسعة: الإقطاع، قسم التاريخ، الجامعة المستنصرية، 2019، ص1.

(3) أرنيست باركر، المرجع السابق، ص47.

(4) أسامة زكي زيد، صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، تق: جوزيف نسيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980م، ص225

(5) يوشع براور، عالم الصليبيين، المرجع السابق، ص105.

(6) يوشع برابر، الاستيطان، المرجع السابق، ص88.

(7) أرنيست باركر، المرجع سابق، ص104.

(8) يوشع براور، عالم الصليبيين، المرجع السابق، ص97.

وبالحديث عن القدس فقد تم الاستيلاء عليها من طرف الصليبيين في يوم رجب 492هـ الموافق ل15 جويلية 1099م[2]، كما انتخبوا جود فيري البولوني ملكا عليها الذي أقام نظاما إقطاعيا شبيها بما كان سائدا في أوروبا، وعند وفاته خلفه أخوه الملك بلودوين الأول 449-512هـ/110-1180م، وقد برزت في هذه الفترة ملامح نظام الإقطاع الصليبي، فقد تم السيطرة على المزيد من الأراضي ومن مظاهره أن الملك الصليبي كان يقوم بمنح الهبات والإلغائات لكبار الجيش حتى أن لم يكن هناك رابطة من روابط الخضوع[3]، أما الرها فقد كان تأثرها بالغزو ضئيلا على الرغم من أنها حكمت بأفراد من أسرة بويون الفرنسية "bouillons" بعد وبعدهم أسره كورتيناري لكن سكانها المحليين من أرمن واليعاقبة لم يستطيع الصليبيون أن يحلوا محلهم، ويضاف إلى ذلك أن فترة حكم الصليبيين للرها كانت قصيرة إلى حد ما[4]، فقد اعتبرت أول إمارة استطاع المسلمون إرجاعها من يد الصليبيين، وبناء على العرف السائد في النظام الإقطاعي في المملكة أن الملك الأول بين أقرانه[5]، إلا أن جزءا كبيرا من الأراضي تم تقسيمه إلى إقطاعات ومقاطعة يمتلكها سادة إقطاعيون[6].

وكانت هذه الإقطاعات إما كبيرة مثل الجليل، إقطاع شرق الأردن ومقاطعة يافا، أو صغيره مثل التي تمركزت حول المدن الساحلية كصيدة، وبيروت وحيفا وقيصرية وأرسوف،و حول المراكز الداخلية مثل نابلس وحيدون والرملة وبيسان[7].

وبعد ذلك ظهرت عدة أشكال للنظام في المستعمرات الصليبية تمثلت في القطاعات أو الاقتطاعات العينية والإقطاعات النقدية[1]، بالنسبة للإقطاعات العينية فقط جازت عليها

(1) يوشع براور، الاستيطان، المرجع السابق، ص88.
(2) حاتم عبد الرحمان الطحاوي، المرجع السابق، ص27.
(3) المرجع نفسه، ص30.
(4) رشا عبد الفتاح حسين، المرجع السابق، ص119.
(5) يوشع براور، الاستيطان، المرجع السابق، ص89.
(6) يوشع براور، عالم الصليبيين، المرجع السابق، ص130.
(7) ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ص476.

الكنائس والأديرة من ملك بيت المقدس وكبار السادة الإقطاعيين وبالحديث عن قيمة ومساحة هذه المنح لم تكن ذات قيمة محددة[2].

أما الإقطاعات النقدية هي عبارة عن حق تحصيل إيجازات مرافق في مدينة أو أية أملاك فيها[3] سنويا وتدفع من مختلف القطاعات والمؤسسات في الكيان الصليبي[4]، وكان يتم توريث الإقطاع النقدي وكان من المستحيل على الملك أن يقوم بإلغائه وكانت الفرصة الوحيدة في الحصول عليه تتمثل في موت السيد الإقطاعي دون وريث أو قبل موته يستطيع أن يختار لابنته زوجا من بين أفصاله[5]، وعلى الرغم من الأسباب الدينية اعتبرت من أول الدوافع التي قامت من أجلها الحروب الصليبية إلا أن الإقطاعات الدينية كانت ضئيلة للغاية فمن بين هذه الإقطاعات اللّد وبيت لحم والناصرة[6].

خ. الزراعة وأوضاع الفلاحين:

لطالما لعب الإنتاج الزراعي الدور في كونه قوام التجارة وأساس الاقتصاد بالنسبة لكل من الصليبيين والمسلمين لذلك رأت كل قوة منهم ضرورة توفير الغذاء[7]، لكن على الرغم من الانتعاش المؤقت الذي عاشته الزراعة في المناطق الإسلامية والصليبية في القرن الثاني عشر إلا أن أثار الحروب الصليبية كانت كارثية على الإنتاج الزراعي في الشام، هذا جراء العمليات العسكرية التي كانت من الطرفين والتي كانت سببا في خراب العديد من

---

(1) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، المرجع السابق، ص23.

أحمد الآباء اليسوعين، مختصر تاريخ سوريا ولبنان، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، 1924م، ص65.

(2) هنادي السيد، المرجع السابق، ص157.

(3) يوشع براور، الاستيطان، مرجع السابق، ص89.

(4) هنادي السيد، المرجع السابق، ص157.

(5) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، المرجع السابق، ص 33

(6) أحمد الآباء اليسوعين، مختصر تاريخ سوريا ولبنان، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، 1924م، ص65.

(7) فوشيه الشارتي، المرجع السابق، ص81

المناطق[1]، وقد جاء تأثر أحوال الفلاحين مع بداية الغز والصليبي للمنطقة فقد هاجر المسلمون تاركين وراءهم ،راضي واسعة حيث قام الصليبيون بتوزيعها على من جاء معهم من مواطنيهم[2]، كونه من بين أسباب الحروب الصليبية كانت أطماعهم في الحصول على خيارات الشرق الإسلام[3].

قام الصليبيون ببناء مستوطنات صغيرة في الأراضي التي امتلكوها واختيرت هذه المواقع الخاصة بالقرى طبقا للظروف الأمنية مثل بنائها على قمم التلال أو محاولة عمارة القرى حيث هجرها أهلها نتيجة الحروب من أجل توفير الإرادات المالية الكثيرة[4]، كما بقيت الخلايا الاجتماعية الأساسية كما هي على الرغم من أن الدولة الإسلامية فقدت سيادتها وسلطاتها على تلك المناطق، فقد مثّل الفلاحون المسلمون قاعدة الهرم الطبقي[5].

كما نسمع عن وجود محكمة خاصة بأبناء القرية تسمى محكمة الريس وهو بمثابة العمدة أو المختار، وكان أعضائها يحكمون فحسب قوانين الإدارة الصليبية الخاضعة لها مع مراعاة العرف المحلي وتقاليد أهلها[6].

واستمر القضاء والعلماء في خدماتهم الدينية وغير الدينية في القرى بسبب عدم إمكانية الاستغناء عنهم في شؤون الزواج والميراث[7]، فبما لا شك فيه أن أوضاع الفلاحين

(1) مفيد الزيدي، المرجع السابق، ص274.

(2) ميخائيل زبوروف، الصليبيون في الشرق، تر: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1986م، ص16.

(3) ويليام الصوري، المرجع السابق، ص23.

(4) محمد مؤنس أحمد عوض، في الصراع الإسلامي الصليبي (معركة أرصوف 1191م-587هـ)، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1، 1997م، ص255.

(5) المرجع نفسه، ص108.

(6) زكي النقاش، المرجع السابق، ص159.

(7) ويليام الصوري، المرجع السابق، ص49.

المسلمين في الحكم الصليبي كانت متردية نتيجة للنظام الإقطاعي المفروض عليها خاصة أن الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض ينتقلون معها من سيد إلى آخر[1].

ومن بين الأعباء المالية المفروضة على الفلاحين المسلمين بوجه خاص كانت توجد ضريبة تعرف بضريبة الرأس capitttion[2] وهذه الضريبة تحدد بقطعة نقدية بيزنطية كانت تعرف بنوميسما والتي كانت تساوي 230 كيلوغرام من القمح، يشير الرحالة ابن جبير عندما قال: الفرنج فرضوا ضريبة للرأس على كل مسلم هي دينار وخمسة قراريط أي أن هذا المبلغ نفسه ما يعادل النوميسا في تلك الفترة[3]، وهي ضريبة يدفعها كل أفراد الأسرة أي على الابناء الذين وصلوا سن الرشد المحدد بسن الخامسة عشر[4]، كما خضع الفلاحون أيضا لضريبة العشر التي تؤدى إلى الكنيسة[5]، وحتى ضريبة على استخدام المطحن والمخبز والحمام التي كانت إقامتهما حكرا على المقطعين[6].

ومن بين الأعباء الملقاة على عاتق سكان القرية كان نظام الصخرة الذي نقصد به العمل الجبري دون أجر في الأراضي التي استأثر بها الأمراء الصليبيين بخاصة تلك التي خصصت لزراعة قصب السكر وأشجار الزيتون والكروم أو أشجار الفاكهة كما فرضت السلطات الصليبية ضريبة تدفع على الأراضي الزراعية حيث يدفعها الفلاح وقت الحصاد في نهاية السنة الزراعية والتي كادت أن تصل إلى ثلث قيمة المحصول الزراعي مع ضرورة تقديم الفلاح الهدايا الإجبارية للسادة الإقطاعيين ثلاث مرات سنويا في الكريسماس، في عيد

(1) حسين عطية، المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، مج27، ع2، 1999، ص73.

(2) Smith: Some lesser Officials in latin Syria "E.H.R"/ (1972), p375

(3) ابن جبير، المصدر السابق، ص254.

(4) Richard : le Rayanme latin de jerusalesalem, paris, 195 », p131.

(5) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص478.

(6) يوشع براور، المرجع السابق، ص108.

النصح، فكانوا يقدمون الدجاج، البيض، الأخشاب، مع عدد من البيزينتات الذهبية فهذه الضريبة كانت تسمى ضريبة الخراج[1].

كما فرضت في المدن الصليبية ضريبة الأسواق والتي كانت تبدأ في البوابات حيث لا يمكن السماح بمرور أي سلع تستحق عليها الرسوم الجمركية أما عن نسبتها فقد اختلفت من سلعة إلى أخرى فقد انحصرت في القرن الثالث عشر ميلادي بين 4% إلى 29% من قيمة السلعة فاستخدم نوعين من العملات في السوق الأولى الدينار الصليبي الفضي والثانية الدرهم الإسلامي[2].

بالإضافة إلى الأعباء المالية والمادية السابقة نجد المعاناة النفسية التي كانت أشد قهرا على نفوس الفلاحين وغيرها التي تمثلت في حالات القهر وظلم الحكام البطش يظهر الحكام الصليبيين فيما حدث في بعض القرى المحيطة ببانياس في قطاع لبابا عندما اشتد الإقطاع الصليبي في إلحاق الأذى وتوقيع العقوبات البدنية على سكان القرى التابعة له وأغلبيتهم كانوا من المسلمين التي وصلت إلى تقطيع الأرجل[3].

فذاقت بهم السبل للحياة نتيجة الأعباء الملقاة على عاتقهم وما تعرضوا له من قسوة وبطش واستعلاء السادة الإقطاعيين عليهم مما أدى بهم إلى هجرة قراهم، فقد صبغت الحروب الصليبية بصبغة اقتصادية استغلالية فالعديد من المدن والجماعات والأفراد التي أيدتها كانوا يهرولون وراء المكاسب المادية التي تساعدهم على جمع الثروات وإقامة المستوطنات والمراكز الثابتة لهم في قلب الوطن العربي[4].

---

(1) يوشع براور المرجع السابق ص44

(2) عبد الحافظ عبد الخالق أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية ط1القاهرة 1427ه 2007م ص 120_121

(3) ابن طولون، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، مكتبة الدراسات الإسلامية، دمشق، قسم 1، 1949م، ص26، 28.

(4) أسامة ابن منقذ، المصدر السابق، ص92.

فقط كان للغزو الصليبي الدور في اختلال الحيازات الزراعية في الشام فيتجلى لنا أن الصليبيين حصلوا على حصة الأسد من الأراضي نتيجة موت أو هرب العديد من مالكي الأراضي الزراعية من المسلمين، واغتصاب الأمراء الصليبيين للأراضي الخاصة بالفلاحين المسلمين[1].

كما فرض الصليبيون على الفلاحين دفع مبالغ كثيرة للموظفين الذين يستخدمهم السيد الإقطاعي ويأتي في مقدمة هؤلاء الموظفين المترجم ذلك الى جانب الذين كانوا عادة مجبي الضرائب أو المختصين بالشؤون المالية وبعضهم كانوا من العرب والبعض الآخرمن اللاتين[2]، فأحوال الفلاحين كانت متردية نتيجة الظلم الإقطاعي فلم يسلموا حتى في حالة المهادنة بين الطرفين، فيشير ابن العديم أنه بعد الصلح المعقود بين المسلمين والصليبيين أغار جوسيلين من على النقرة والآخص فقتل وأحرق كل ما فيها[3].

فيشير أيضا ابن القلانسي إلى هذا فيذكر إغارة الفرنجة على ناحية الشعراء المجاورة لبانياس بعد الصلح الذي عقد بينهم فأخذ الصليبيون جميع ما وجدوه[4]، فانحط المسلمون إلى درك العبودية والرق فتأثر أيضا الرعي في تلك الفترة نتيجة لوجود بعض المستنقعات التي غطت مساحات واسعة من المنطقة، فتكونت الأراضي البور التي كانت بمثابة مرعى للماشية ويرجع ذلك إلى الطبيعة الجغرافية للمنطقة أو لهجرة السكان بسبب الحروب وأهم هذه المراعي أرسوف، قيسارية، الرملة، يافا، وحول سهول أنطاكية[5].

---

(1) الزبيدي، الاستيطان الصليبي في بلاد الشام مملكة بيت المقدس نموذجا (492-583 هـ/1099-1187م)، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1426هـ/2005م، ص27.

(2) décervelle le roulex (1) : les Archives la Bibliothequet la tressre De London de Saint. Jean de jeusalema Malee, Pais, 1883, p127/

(3) ابن العديم، المصدر السابق، ص259

(4) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص402

ابن العديم، المصدر السابق، ص285

(5) قاسم عبده قاسم.المرجع السابق ص179

ويجدر بناء التطرق إلى الحديث عن التدخل الصليبي في الممارسات الدينية المحلية من المحليين من المسلمين ومسيحيين فلم ينعموا بممارسة شعائرهم الدينية في جميع المناطق الخاضعة للمستعمرة فبالنسبة للمسلمين من السكان المحليين فتظهر لنا العديد من الدلائل على انتهاك حرمتهم المتمثلة في تأدية شعائرهم الدينية فقد حول الصليبيون الكثير من المساجد إلى كنائس واستولوا على ذخائرهم خاصة المساجد الكبرى، فلم يبقى في المدن سوى القليل من المساجد الصغيرة بالمقارنة مع قبل مجيء الصليبيين[1].

تشير المصادر إلى تحول المسجد الأقصى في مدينة القدس إلى هيكل سليمان الذي اتخذ منه أبناء طائف فرسان الداوية أو المعبد مركزا رئيسيا لهم وفيه الصخرة تحولت إلى هيكل للسيد المسيح[2].

أما بالحديث عن مدينة طرابلس فقد حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة، وأيضا عسقلان حيث حولوا مسجدها الرئيسي المعروف بالمسجد الأخضر إلى كنيسة للقديسة مارية القبطية، وحصل هذا في كل مدينة تخضع لحكمهم[3].

ففي بداية الغزو الصليبي تقرر منع المسلمين من دخول بيت المقدس أو الإقامة بها إلا في حالات استثنائية تمثلت في ممارسة الأعمال التجارية أو زيارة المسجد الأقصى[4]، كما تذكر لنا بعض المراجع الأوروبية أن العديد من الأمراء الصليبيين المتعصبين كانوا يجبرون المسلمين الذين يشتغلون لديهم في الاستمرار في العمل أيام الجمع ويمنعونهم من أداء صلاة الجمعة في المساجد[5].

وعند الحديث عن المسيحيين المحليين في الشام فقد تعدد طوائفهم من: أرمن، روم أرتوذكس، سوريان، أرتوذكس وغيرهم، ومن المعروف أن الروم الأرتوذكس كانوا الأكثر عددا

(1) ابن جبير، المصدر سابق، ص249، 254

(2) المصدر نفسه، ص249، 251.

(3) علي السيد محمود علي، المرجع السابق، ص161.

(4) Prawer : the Settlement of the latin mi Jerusalem « Speculum » XXVII, p494.

(5) علي سيد علي محمود، المرجع السابق، ص 162.

بين الطوائف المسيحية المختلفة لبلاد الشام[1]، وقد فاق عدد الصليبيين في كثير من المدن التي كانت تخضع للشام خاصة أنطاكية التي كان معظم أفرادها من هذه الطائفة[2].

كما قام الصليبيون بإقصاء كبار رجال دينهم من مناصبهم وإحلال رجال دين من اللاتين، كما أغفلوا شعائرهم الدينية في الكنائس الكبرى فاشتد العداء بين الطارفين وكبرت معاناة هذه الطائفة[3].

أما بالحديث عن السريان الأرتوذكس فقد كانوا أكثر عددا من غيرهم من الطوائف المسيحية المحلية في طرابلس، جبيل، بيروت، وعكا فقد تعرض لهم الصليبيون خاصة في رجال دينهم، وقد قام الصليبيون بعمليات النهب والسلب ضد كنائسهم[4]، وهذا ما جعل عواطف المسيحيين المحليين والمسلمين المحليين تتحد فقد أحسوا بمدى الخطر الصليبي على بلادهم ورأوا أن الصليبيين إذا دخلوا بلدا عربي يستولون على الأخضر واليابس ويقترفون الفحشاء ويسبون الدماء ويرتكبون العديد من الجرائم البشعة ثم يستولوا على الجهات التي اغتصبوها لتصبح ملكا لهم بعد أن يكونوا قد أزالوا الشعائر الإسلامية والمسيحية الشرقية منها[5].

د. الصناعة:

تميزت المنطقة بالتنوع الصناعي في الفترة التي سبقت الغزو الصليبي وتراوحت هذه الصناعات ما بين اعتمادها على المنتجات الزراعية كصناعة المنتوجات وصناعة السكر والصابون، النبيذ، وعلى المواد الأخرى كصناعات الأقمشة، وصناعة الزجاج والمعادن[6]،

---

(1) d. Murray : Syria and palastin, london 1858, vol. I. p. xIII.

(2) L. A/ Z. O e : the crusades New York, 1960, p135.

(3) بسام كرد علي، سوريا ولبنان جغرافيا، مكتبة العلوم والآداب، للطباعة والنشر، دمشق، 1949، ص142.
علي السيد علي محمود، المرجع السابق، ص163.

(4) علي السيد علي ، المرجع السابق، ص163.

(5) جوزيف نسيم، العرب والروم اللاتين في الحروب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية، الإسكندرية، 1957م، ص267.

(6) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، المرجع السابق، ص213.

فانتشرت صناعة المنسوجات في معظم مدن الشام مثل: دمشق، حلب، حماة، صور، طرابلس، بعلبك، طبرية، أنطاكية، سيج، الرصافة[1].

كذلك عرفت صناعة الزجاج في صور والخليل، والبورسلين ، والصابون في نابلس ويافا، أما صناعة الورق فقط اشتهرت بها مدن دمشق، حلب ،وطبرية[2].

وكان لقدوم الصليبيين من وسط اقتصادي متخلف فقد انتهزوا فرصة استيلائهم على بلاد الشام فزاد اهتمامهم بالصناعات الشامية من أجل تلبية حاجاتهم المتزايدة في الاستهلاك والتصدير، فقد نجح الايطاليون في نقل بعض الصناعات إلى مدنهم مما ساهم بعد ذلك في انتقال هذه الصناعات للغرب الأوروبي والحقيقة أن الصليبيين لم يستحدثوا أي صناعة جديدة ببلاد الشام[3].

كما وجد معدن الحديد في جبال بيروت[4] استغله المسلمون في صناعة الأسلحة والأدوات الحديدية، وإبان الفترة الصليبية استخدم الصليبيون في صناعة الأسلحة والذروع بشكل مكثف نظرا للظروف العسكرية المحيطة بالمستعمرات الصليبية، الأمر الذي لابد وقد استحوذ على كل خام الحديد فلم يصدر إلى الغرب كذلك استخدم الصليبيون الحدادين[5] في صناعة الأبواب والخزانات الحديدية وتزيين المنازل وصناعة المحاريث اللازمة للزراعة واشتهرت مدينة قياسيرية بالصناعات النحاسية لإنتاج أواني الطهي[6].

كما ازدهرت صناعة الحلي وأدوات الزينة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة مما أدى إلى تلبية احتياجات أثرياء المجتمع الصليبي، وحتى الكنائس وانتعشت بشكل خاص صناعة المشغولات الذهبية بشكل خاص، وبلغت أهميتها مبلغا كبيرا بعد أن خضعت

---

(1) Ziada, Urban Life in Syria, p132.

(2)حاتم عبد الرحمن الطحاوي، المرجع السابق، ص213.

(3) Hitti, Ph, the Impact of the Crusades on Muslim Leders, kn Setton (ed), Vol, v. p38.

(4) المقدسي، المصدر السابق، ص184.

(5) Prawer, Cusader Instituions, p128.

(6) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، المرجع السابق، ص218.

للفحص من قبل الملك الصليبي،إضافة إلى تنظيم مهنة الصائغين في شوارع خاصة بهم مثل ذلك الشارع الخاص بتجارة المصوغات في سوق القدس[1].

فالصناعات التي شهدتها المستعمرات الصليبية لبلاد الشام أسهمت في انتعاش الحركة التجارية وساعدت في قيام عمليات التبادل التجاري مع المدن الإيطالية، كما وفرت الصناعات السابقة الكثير من الإيرادات للسلطات الصليبية عن طريق فرض الضرائب عليها أو عن طريق بيع الملك لحقوق احتكاره بعض الصناعات ، لذلك نلاحظ أن الصليبيين لم يقوموا بإيجاد صناعات جديدة يرجع هذا إلى ارتفاع مستوى الصناعات الشامية عند صناعات أوروبا إبان الفترة الصليبية فكل ما فعله الصليبيون هو تحسين بعض الصناعات اللازمة لحركة التجارة[2].

لكن في عهد صلاح الدين الأيوبي وما تضمنه من أعمال عسكرية ضد صليبيين أدى إلى تدهور الكيان الصليبي في عهده من تبعه خاصة المماليك قلاوون والأشرف خليل ثم محمد بن قلاوون مما جعل الايطاليين ينقلون هذه الصناعات إلى بلادهم بل ويتوفقوا في بعضها ليصبحوا مصدرا مهما من مصادر التجارة العالمية ، لكن صناعة النسيج في الشام ظلت مسيطرة على الأسواق الخارجية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ميلادي ولم تظهر منافسة ايطالية قبل القرن السادس عشر ميلادي، وذلك في ضوء الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي نعمت به بلاد الشام في عهد سلاطين المماليك[3].

ثانيا: التأثيرات الاجتماعية:

تجلى التأثير الكبير للحروب الصليبية من الناحية الاجتماعية ذلك خاصة في منطقة بلاد الشام بالمقارنة مع المناطق الأخرى، وذلك من سكان، وطبقات، أقليات، مذاهب، متصوفة، أخلاقيات، قيم، عادات، تقاليد فقد انفردت بطبيعة متنوعة من السكان فقد تكونت

(1) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، المرجع السابق، ص216

(2) المرجع نفسه، ص 219

(3) المرجع نفسه، 275

فيها أقوام محلية وخارجية ساعدتها طبيعة التضاريس على تكوين حضارات ومذاهب عديدة في المنطقة[1].

كانت هذه المنطقة تضم عناصر سكانية متنوعة منها كردية، تركية، عربية، بالإضافة إلى النصارى من الأرمن والسريان، وتشير المصادر أن الأتراك ازدادت أهميتهم بفضل نشاطهم العسكري وسيطرتهم على مقدرات الخلافة، أما الأكراد فقد كان تواجدهم قبل قدوم الصليبيين وزادت أهميتهم كونهم أصبحوا غالبية في جيش صلاح الدين كون تنافس بين طرفين أدى إلى اضطراب العلاقات بينهما[2].

وأثرت الحروب الصليبية على اختلال القوى الاجتماعية في بعض المناطق تحول المسلمون إلى أقليات في المدن الخاضعة للصليبيين يرجع ذلك إلى المذابح التي ارتكبها الصليبيون ضد السكان المحليين لبلاد الشام مما أدى إلى هجرات كبيرة إلى الغرب أو إلى غيرها من البلدان الإسلامية الأخرى، كما تأثرت البلاد الإسلامية بسبب سكن مسيحيين من بلاد الشام في البلاد العربية، وارتد العديد من المسلمين عن دينهم واعتنقوا الديانة المسيحية خوفا عن حياتهم والبعض الآخر كان يخفي إسلامه وقد كان بعضهم يقدم المساعدة لأسرى المسلمين ويساعدهم على الوصول للمناطق الإسلامية[3].

وانتشر الصراع بين أمراء المناطق الحضارية وأمراء المناطق الريفية واشتد النزاع بين أبناء الأسر الحاكمة ووزرائهم وعامة الشعب هذه النزاعات أضرت بالأمن وانتشر ظاهرة اللصوص وقطاع الطرق[4]، في حين بعض المناطق شهدت نوعا من التعايش السلمي بسبب الظروف الاقتصادية مثلما حدث في بانياس فاقتسم المسلمون والصليبيين المناطق الزراعية فالضرورة الاقتصادية جعلت الطرق التجارية وقوافلها آمنة[5]، كان لعمليات التعسف

(1) مفيد الزيدي، المرجع السابق، ص268.

(2) ابن شداد، المصدر السابق، ص235.

(3) ابن منقذ، المصدر السابق، ص82.

(4) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص169.

(5) المقريزي، السلوك، المصدر السابق، ص105.

والمذابح التي اقترفها المغتصب ضدهم وعمليات التشريد التي أبعدت السكان عن بلادهم ونشرت في نفوسهم مشاعر الإحباط التي زادت حدتها وازدادت معها عدد الهاربين من المدن الإسلامية[1].

ونرصد تأثير الحروب الصليبية في النظام القيمي والأخلاقي في كون هذه الحروب الطويلة والمرهقة كان لها من الإفرازات السلبية ما تفوق الحروب العادية فقد وقعت أحداث الحملة الأولى في زمن كان العالم الإسلامي يعاني من شرور التمزق والتشرذم السياسي[2]، فانقسم العالم الإسلامي وقتها في تلك الفترة بين خلافتين ومذهبين متنافسين فأصبحت بلاد الشام عرضة للفتن والتوترات بين السنة والشيعة، ولم يقتصر على ذلك فقط فظهرت انقسامات طائفية مثل الإسماعيلية ودوا الدرزية والنصيرة وما نتج عن الطوائف من تأثير على الحالتين الاجتماعية والسياسية لبلاد الشام، إلى جانب النتائج السلبية التي نتجت عن فشل المسلمين في القضاء على الحروب الصليبية الطويلة على الرغم من موارده البشرية والاقتصادية[3].

وبالحديث عن الطائفة الاسماعيلية ففي سنة 622هـ استطاعت امتلاك عدد كبير من القلاع الشامة من بينهم قلعة الكهل وقلعة القدموسا ومصاف[4]، فقد برز دور هذه الطائفة في مقاومة المذهب السني المتمثل في الخلافة العباسية[5]، والدور المهم لهم تمثل في مقاومة الصليبيين مع عدم التفريق بين المسلمين والصليبيين والمسيحيين بل اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الجميع[6]، ودليل ذلك يظهر في طبية علاقاتهم مع الحكام المسلمين وموقف الحكام منهم فعندما اشتد أمرهم في حلب وأثناء حكم قلب أرسلان قام بقتل زعيمهم

(1) ابن منقذ، المصدر السابق، ص82.

(2) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص171.

(3) المرجع نفسه، ص 271

(4) محمد كردي علي، مرجع سابق، ص90.

(5) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص193.

(6) ويليام الصوري، المرجع السابق، ص126.

مما دفع أتباعه إلى التفرق في البلاد، ولكن سرعان ما قويت شوكتهم مرة أخرى بعد ظهور زعيمهم بهرام الذي حظي برعاية طغتكين واستطاع الاستيلاء على بانياس فقد منحه إياها سنة 1126م[1]، وقام نور الدين محمود بإلغاء بعض شعائرهم الدينية[2]، لكن استطاعوا استرجاعها بعد موته[3]، كما حاول صلاح الدين أكثر من مرة التخلص من هذه الطائفة، كما كانت هناك محاولات عديدة من شيخ هذه الطائفة للتخلص من صلاح الدين وانتهت هذه المحاولات بالفشل للطرفين[4]، لكن هذه الطائفة انتهت على يد الظاهر بيبرس الذي بدأ في الاستيلاء على حصونها في الشام مما أدى إلى القضاء عليها[5].

وبالحديث عن الطائفة النصيرية كانت تتمحور في شمال الشام كانت عقيدتهم في بعض الآراء الشيعية المتطرفة وسرية الطابع كهنوتية النظام وباطنية التعاليم وتقدس بشكل كبير علي بن أبي طالب وتتكون من قبائل متحالفة ذات نظام طبقيي[6].

وبالحديث عن الزيجات في المجتمع الإسلامي بشكل عام وبلاد الشام بشكل خاص فقد كان الرجل الراغب في الزواج يقوم بدفع مهر تشترطه العروسة وسبب ذلك أن الرجل قوام على المرأة[7]، على عكس ما يحدث في المجتمع الصليبي فقد كانت الزيجات متنوعة الأجناس كانت النساء الأرمن والبيزنطيات شاركن فيها فكان هذا الاتجاه شائعا بشكل خاص بين الطبقات العليا في نبلاء الفرنج، فقد نجد في العائلة الصليبية أحد أفرادها سواء كانت أما

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، المصدر السابق، ص320، محمد كرد، المرجع السابق، ص3.

(2) الحويري، المرجع السابق، ص34.

(3) عوض محمد مؤنس احمد، التنظيمات الدينية في عصر الحروب الصليبية، دار الجندي للنشر والتوزيع، ط1، 2012، ص247.

(4) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص76، المقريزي، المصدر السابق،ج1، ص61.

(5) الحويري، المرجع السابق، ص36.

(6) رشا عبد الفتاح محمد حسين، المرجع السابق، ص 62.

(7) رحمة رواق، الزواج في المجتمع الصليبي في بلاد الشام دراسة من خلال النصوص العربية (491-583هـ/1096-1187م)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج7، ع4، الوادي، 2022، ص780.

أو عمة مسيحية شرقية هذا ما كان شائعا في الأسرة المالكة ثم بدأ الخدم الشرقيون بالتأثر بها فتضخم عددهم في منازل الأثرياء[1].

فخلال القرن الثاني عشر ميلادي أقيمت في بلاد الشام حفلات زفاف غير مألوفة الطقوس المعتادة في مجتمع الشرقي مما أثار ضجة كبيرة وانتقادات كثيرة سواء من طرف المسيحيين أو المسلمين فقد اعتبروا هذه الأفعال خروجا عن التعاليم الدينية[2]، ويذكر فوشيه الشاتري في قوله: «أن البعض اتخذ زوجات لهم لا من بنات جلدتهم بل السوريات أو من الأرمينيات بل حتى من الشرقيات اللواتي حضينا ببركة العماد، ولدينا هنا أحفاد وأولاد أحفاد»[3]، فتشكل جيل جديد يجمع بين الجنسين العربي والفرنجي حتى أن بعض الصليبيين المستقرين والمرتبطين بالكيان القومي العربي حيث احتفظت بعض العائلات اللبنانية بأسماء لاتينية مثل: FranKish, Balden, Crusading والعديد من الأسماء دون تغييرها[4].

فقد كانت حفلة الزفاف عند الشرقيين بعد عقد قران العروسين ومن عاداتهم كان ليلة الحناء وفي اليوم السابع لحفل الزواج يتم فيه وضع الحناء على يدي وأرجل العروس كل ذلك في جو من الفرح والسرور والغناء، ثم ترحل بصحبة عائلتها وأصدقائها في جو بهيج، أما في اليوم الثاني وهو يوم الزفاف الذي يشمل الأهل والأصدقاء والجيران وجميع المعارف لكلا الطرفين ليتم عقد قرانهما، ثم يقوم كلاهما مع الحاضرين بالمرور في بلدهما للإشهار بتمام زواجهما ويبادل أهل البلدة برميهم بالورد والحلوى وماء الورد، ثم يعود العروسان منزلهما وينتهي الحفل بتهاني الأهل والأصدقاء تحت مسامع الغناء والموسيقى[5]، أما الرحالة ابن جبير فيصف لنا عادات الصليبيين من خلال حفل حضره بمدينة صور يظهر

(1) يوشع براور، عالم الصليبيين، المرجع السابق، ص107.

(2) المرجع نفسه، ص108.

(3) فوشيه الشاتري، المرجع السابق، ص218.

(4) فيليب حتى، المرجع السابق، ص390.

(5) نهى فتحي الجوهري، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري، دار العالم العربي، ط1، القاهرة، 2008م، ص200.

هذا في قوله: «اصطف الرجال والنساء في صفين عند باب العروس، والأبواق والمزامير وجميع الآلات كانت تضرب حتى خرجت تترنح بين رجلين يمسكانها يمينا ويسارا[1]، وكانت ترتدي أروع ملابسها وأكثرها فخرا مع ذيول من الحرير المذهب تشد ثيابها، وشريطا ذهبيا على رأسها محاط بشبكة ذهبية منسوجة.... سابقتهم الآلات المقدسة وحملوها معهم حتى أتوا بها إلى بيت زوجها، وضعوا وليمة في ذلك اليوم[2].

ثالثا: التأثيرات الفكرية والثقافية:

وبالحديث عن الآثار الفكرية والثقافية الناتجة عن الحروب الصليبية فهي لا تظهر بين عشية وضحاها، كما أنها لا تختفي بمجرد انتهاء الحرب بل هذه التأثيرات تأخذ لنفسها بشكل تيار اجتماعي ثقافي مستمر ومتصاعد فيتبلور من خلال إبداعات أبناء هذا المجتمع في فنونه وآدابه[3]، والملاحظ أن ثقافة الفرنج كانت أقل من ثقافة المسلمين ولعبت التعصبات الدينية والعداوات بين الطرفين إضافة إلى الحاجز اللغوي كل هذه اعتبرت عقبات أمام التفاعل الفكري بين الطرفين في بلاد الشام[4].

فقد كان التبادل الثقافي الذي حدث محدود المدى والأثر حيث انحصرت بين الشرق وجزء محدود من الغرب[5]، ولطالما اعتبرت اللغة هي الوسيلة للتحاور بين الناس عن طريق التعبير بها عن آرائهم[6]، لذلك كانت اللغة ضرورية لتبادل الفكري وبين الطرفين، وبما أن العنصر الفرنجي هو السائد اجتماعيا وثقافيا[7] في المجتمع الفرنجي داخل بلاد الشام وعلى

(1) ابن جبير، المصدر السابق، ص278.

(2) رحمة رواق، المرجع السابق، ص795، 796.

(3) مفيد الزيدي، المرجع السابق، ص182.

(4) فيليب حتى وآخرون، تاريخ العرب، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ،1945، ج2، ص784.

(5) إلياس أبو شبكة، روابط الفكر والروح بين العرب والفرنج، دار المكشوف، بيروت، ط2، 1945، ص 19.

(6) عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص235.

(7) يوشع برابر، عالم الصليبيين، 195، ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص478.

الرغم من أن اللغة اللاتينية هي اللغة المستخدمة في المراسلات لكن الفرنسية كانت لغة التحدث في منطقة[1].

كما لا ننسى الجاليات الايطالية التي امتلكت العديد من المناطق الفرنجية ببلاد الشام مثل: الجنوية، البنادقة، البيازنة، الأماليفين الذين كانوا يتحدثون اللغة الايطالية[2]، وبسبب تعدد اللغات استخدم هؤلاء التجار في موانئ الشام التي استولوا عليها قد انشئوا لغة مشتركة بينهم والتي كانت عبارة عن تداخل بين اللغات الإيطالية اليونانية والفرنسية وأيضا اللغة العربية[3]، ودليل ذلك ما قاله فوشيه شتري: لجأ الناس لاستعمال التعابير والبيان من لغات شتى في التحدث فيما بينهم لتصبح الكلمات من اللغات المختلفة ملكية تشترك فيها كل أمة[4]، لكن المسلمين لم يكونوا يريدوا تعلم لغة أعدائهم كونهم يتحدثون لغة القرآن الكريم[5]، على عكس الإفرنج فأكثر أمرائهم قد تعلموا العربية[6]، ودليل ذلك المؤرخ المعاصر وليم الصوري الذي قام على طلب الملك عموري ملك بيت المقدس بتأليف كتاب عن تاريخ الشرق والغرب منذ ظهور الإسلام إلى تلك الفترة فأطلق على هذا الكتاب: Une Historia Sara Cenorum ومع الأسف لم يتبقى هذا الكتاب سوى ما نقله بعض المؤرخين القرن الثالث عشر ميلادي[7]، فالفرق بين الذين استقروا في الأراضي المقدسة العديد منهم كتب في التاريخ والفنون[8].

(1) يوشع براور، المرجع السابق، ص195.

(2) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص471.

(3) عفاف صبره، العلاقات، المرجع السابق، ص251.

(4) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص18.

(5) فيليب حتى، لبنان في التاريخ، تر: أنيس فريحة، دار الثقافة، 1959، ص390.

(6) المرجع نفسه، ، ص390

(7) رشا عبد الفتاح محمد حسين ،المرجع السابق ص 78

(8) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص262.

ويتضح تأثر الأدب العربي بالحروب الصليبية، فقط لعب دور كبير في حث المسلمين على الصراع مع الصليبيين كون الأدب قد كان وسيلة للتعبير عن قضية الجهاد في نوعين هما: النثر، الشعر، فقد مثل الأدب ومسألة حياة أو موت للعيش في أمان لتنتج عاطفة دينية جبارة لا تعرف الرفق ولا الهوادة، وأصبح الأدب العربي في الشام أدبا عاطفيا قويا تغذيه عاطفة الدين والجنس واللغة[1].

كما تأثر الأدب القصصي بالحروب الصليبية التي أضافت له ثوبا من الحزن بسبب النزاع بين المسلمين والإفرنج، ودليل ذلك قصص ألف ليلة وليلة التي تتحدث عن الانتصارات العديدة للمسلمين على النصرانية، التي كانت عبارة عن ثلاث حكايات داخل ألف ليلة وليلة عن الحروب الصليبية، وهي حكايات عن نور الدين المصري مع مريم الزنارية، وقصة الصعيدي وزوجته الإفرنجية، وحكايات الملك نعمان وولديه شركان وضوء الزمان[2]، فقد كانت الممارسات الفكرية في القرن السادس هجري الثاني عشر ميلادي مرآة عاكسة للحضارة العربية الإسلامية التي تجلت فيها العديد من الخصائص التي ميزت الحضارة في تميز الحضارة في تلك الفترة[3]. كون النشاط الثقافي موجها نحو الحفاظ على التراث الفكري المجيد أكثر منه نحو المشاركة في إثراء هذا التراث فقط بدأ العلماء يتجهون نحو التجميع والتركيب بدلا من الابتكار والإبداع ودليل ذلك ما خلفوا من مؤلفات ضخمة ذات طبيعة موسوعية أو شروح وتفسيرات جامعة أو كتب العلوم مثل: تفسير القرآن الكبير للفخر الرازي وبدائع الصانع في الفقه للكاساني[4].

(1) محمد كيلاني، مرجع سابق، ص53.

(2) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب، المرجع السابق، ص187.

(3) Nabih Amin Faris, Arab cuture inthe Twelfth,, centery in Setton, v. p5.

(4) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، منشئة المعارف، الإسكندرية، 1990، ص75، ص91.

كما نشطة الحركة في ميدان التأليف بشكل كبير في فترة الحروب الصليبية فقط اتخذ هؤلاء الكتاب من المسلمين من التأليف كنوع من الكفاح والدفاع عن الإسلام في الشام[1]، أمثال ابن القيم الجوزية الذي ألف كتاب بعنوان هداية الحيارى من اليهود والنصارى، وإغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، وأيضا الغزالي الذي كتب العديد من الكتب ككتاب جوهر القرآن، فضائل القرآن، ولابن تيمية كتب عديد مثل الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح[2].

كما واجهت العلوم العملية انتشارا واسعا في المنطقة خاصة العلوم المتعلقة بالحياة الخاصة بالإنسان أو المتعلقة بالحروب[3] فقط حرصوا على ضرورة الاهتمام بالجانب الطبي الذي أصبح في دائرة النزاع بين الصليبيين والمسلمين مما أدى إلى مواجهة حضارية بينهما فأدى إلى استفادة الصليبيين من العلوم الخاصة بالمسلمين في مجال الطب[4]، كما وقد شهدت العلوم الفكرية الجغرافية نشاطا بارزا يظهر من خلال المصنفات أهمها "تقويم البلدان" لأبي الفداء ملك حماة وأشهر الكتب أيضا والغني عن الذكر "معجم البلدان" لياقوت الحموي، من أبرز الفلكيين أبو الفضل بن ياسين الحلبي ومؤيد الدين العرضي الدمشقي وعبد الله الجماعيلي، كما شهد التاريخ حركة تأليف كبيرة لازلنا نستفيد من كتبها في الوقت الحالي[5].

(1) مصطفى حسن محمد الكيلاني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي 1171-1291م/597-990هـ أضواء جديدة على الحركة الصليبية، تق: جوزيف نسيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م، ص238

المرجع نفسه، ص238

قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص173.

(2) المرجع نفسه، ص173

(3) المرجع نفسه، ص173.

(4) فيليب حتى، المرجع السابق، ص381.

(5) رشا عبد الفتاح محمد حسين، المرجع السابق، ص91، 92.

رابعًا: التأثيرات السياسية:

سقطت عكا سنة 690هـ/1291م في أيدي المماليك في عهد الأشرف خليل بن قلاوون وأعقبها نهاية الوجود الصليبي على فلسطين ومواجهته العسكرية التي استمرت لقرنين من الزمن فقد انسحب الصليبيون من القادة والفرسان إلى قبرص ورودوس لتتخذها مصر للقرصنة والإغارات السريعة على الشواطئ الشامية[1]، إلا أن خروج الصليبيين من الأراضي الشامية خلفت آثار وتفاعلات امتدت إلى مراحل تاريخية بعدهم وأفرزت تداعيات على الوطن العربي لأن المواجهة العربية الإسلامية مع الصليبيين لم تكن مجرد صراع عسكري بحت بل هو صراع بين حضارات[2]، ولعل أبرز التداعيات السياسية لهذا الصراع تمثل في اضمحلال نموذج الخلافة كدولة من الناحية العملية في ظل النزاع ضد الصليبين، ورغم أن الخلافة ظلت تلعب دورا دينيا بل أنها اعتبرت الواجهة الشرعية إلا أن عوامل الانحطاط كانت تؤثر سلبا على الخلافة هذا حتى قبيل دخول المستعمر، فلعل المواجهة العسكرية والسياسية قد كرست نموذج الدولة العسكرية التي يقودها الملك المحارب بدلا من الدولة التي يقودها الخليفة الذي لا يتمتع بالسلطة الواقعية مثل الخلافة العباسية وحتى الفاطمية عندما بدأت قوات الصليبي تصل إلى الأراضي[3].

ولعل أهم ما يثير الانتباه في الحروب الصليبية تمثل حالة التشرذم السياسي والنزاع في المنطقة قبيل قدوم الحملات الأولى، وظلت على نفس الحال بعدها فقد أدرك المجتمع العربي أن مؤسساته السياسية القائمة سواء كانت في نظام الخلافة أو في الإمارات والدويلات أنها عاجزة على قيادته عسكريا وسياسيا ضد الهجوم الصليبي ورفض العرب حال الخليفة العباسي المتقاعس عن الغزو[4]، ثم تواطئ الخليفة الفاطمي وأتباعه وهم أمام

(1) عيسى الحسن، المرجع السابق، ص342.

(2) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص150.

(3) مفيد الزيدي، المرجع السابق، ص258.

(4) علي سعود عطية، المرجع السابق، ص337، 338.

أنطاكية والتفاوض معهم بغية اقتسام الأراضي والنفوذ على حساب السلاجقة، بينما الأمراء الصغار من حكام المدن والدويلات الصغيرة في الشام كانوا أكثر سوء، هكذا كانت أحوال المجتمع منذ قرن من الحروب والنزاعات من أجل النفوذ والسلطة مما نشر مظاهر التمزق السياسي في الوطن العربي[1].

هكذا فقط عرف الرأي العام خطورة الأوضاع السياسية وتداعياتها وعرفوا مدى خطورة الهجوم الصليبي لذلك فقد دعا إلى قيام سياسة جديدة تصيغ الدولة الموحدة بدلا من الجهاد الحربي، كل ذلك تحت قيادة ملك مسلم محارب وشجاع، وضرورة التخلص من نموذج الخلافة الذي صار فيه الخليفة بدون تعبير واقعي عن صلاحياته فصار اسما لا معنى تحته فلم يعد قادرا على قيادة الأمة سياسيا وعسكريا[2]، ولم يكن غريبا أن تذوب هذه الإمارات الصغيرة في خضم الصراع الإسلامي الصليبي فظهر الاتجاه السياسي الوحدوي الذي بدأ واضحا منذ أتابك عماد الدين زنكي ودولة ابنه نور الدين محمود، ثم تكرس في عهد صلاح الدين الأيوبي ليصبح راسخا منذ بداية عصر سلاطين المماليك[3].

وفي خضم الحملات الصليبية سقطت الخلافة الفاطمية في الفترة الممتدة من 358-567هـ/969-1170م، وهذا وقد كانت الخلافة العباسية هي الأخرى قد ضعفت سياسيا وتاريخيا في تأدية دورها بل تحولت لمجرد عاطفة دينية تدل على ماضي التاريخ المجيد فأصبحت مجرد واجهة شرعية تستمد منها الدولة العسكرية قوتها[4]، والتي قامت لقيادة هذا الصراع والتأييد لكسب ولاء رعاياها وحين سقطت الخلافة العباسية فعلا خلال منتصف القرن السابع هجري الموافق للثالث عشر ميلادي حرض السلطان الظاهر بيبرس على إعادة إحياء الخلافة من جديد ليس في بغداد بل بالقاهرة وظلت حتى دخول العثمانيين القاهرة عام

(1) عيسى الحسن، المرجع السابق، ص343.

(2) مفيد الزيدي، مرجع سابق، ص259.

(3) عيسى الحسن، المرجع السابق، ص304.

(4) مصعب حمادي نجم الزبيدي ، المرجع السابق، ص56.

1517م[1]، فعندما كانت الخلافة العباسية تمشي منحى التدهور قبيل الحملة الأولى وبوقت طويل بدأت النتائج السياسية بالظهور لهذا الضعف فيعتبر عام 358هـ969م العام الذي نجح فيها فيه الفاطميون في انتزاع مصر من الخلافة العباسية وتوسعوا على حسابها في البلاد العربية الإسلامية وفلسطين والشام بشكل خاص[2]، لذلك أصبحت الدولة الفاطمية تنازع الدولة العباسية، فضل الأمر هكذا لمدة قرنين وعندما بلغ القرن الحادي عشر ميلادي ذروته قام أبو الحارث البساسيري بانقلاب داخل بغداد لصالح الفاطميين واستنجد الخليفة العباسي بالقائد السلجوقي طغرل بيك الذي دخل بغداد سنة 446هـ_1055م وتمكن من القضاء على البساسيري بعد فترة معينة وأصبحت السلاجقة القوة المسيطرة في بغداد، وأصبح السلطان السلجوقي هو الحاكم الفعلي للبلاد التي وصلت لخرسان والشام، فتوسعت الدولة السلجوقية في وقت مبكر شمالا وغربا على حساب الأرمن والبيزنطيين[3].

وأثناء كل هذه الأحداث كانت الخلافة العباسية عاجزة على التصدي للعباسيين فتجمدت قواها السياسية والعسكرية وتحملت الإمارات العسكرية عبئ هذه المواجهة لكن عدم وحدتها جعل جهودها تفشل في القضاء على الكيانات الصليبية[4]، بينما الخلافة الفاطمية في القاهرة كانت من الداخل تشير إلى أن الخلفاء لم يعد لهم نفوذ مذكور وقد أصبحت الخلافة تحت حكم الوزراء الذين سمحت لهم أطماعهم باغتصاب السلطة لأنفسهم على حساب الخلفاء الضعفاء[5]، كما يشير المقريزي أنه في بداية ضعف الخلافة الفاطمية ترجع إلى الاشتباكات المسلحة بين الأتراك والجنود وعلى أي حال كان الأفضل بن بدر الجمالي يعتبر صاحب السلطة الفعلية عند قدوم الفرنج للمنطقة ولم يعد للخلفاء شيء يذكر سوى

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، المرجع السابق، ص455.

(2) المرجع نفسه، ص456.

(3) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (766-745هـ)، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، 1996، ص232، 257.

(4) علي سعود عطية، المرجع السابق، ص373.

(5) المقريزي، اتعاظ الحلفاء، ص265، 267.

لقب الخليفة من غير مضمون حقيقي وهذا يشير إلى أن الدولة الفاطمية أصبحت دون نفوذ أو سلطة[1].

لكن الفشل الأكبر للفاطميين كان في موقفهم من الصليبيين فقط استشار الوزراء بالسلطة دون خلفاء ثم تعاظم الصراع حول كرسي الوزارة أدى إلى نتيجتين في غاية السوء أحدهما سياسي والآخر عسكري تمثل في فشل الأفضل في إدراك حقيقة الخطر الصليبي وقد اغتيل سنة 515 هـ،1121م[2]، مما أدخل مصر في دوامة شريرة من المؤامرات والاغتيالات ومع كل هذه الأحداث استنجد أحدهما بنور الدين محمود وقوات المسلمين واستنجد الآخر بالفرنج مما نتج عنه سقوط الخلافة الفاطمية لتحل محلها دولة عسكرية وهي دولة الأيوبيين بقيادة صلاح الدين الأيوبي على أسس عسكرية ذلك على الرغم من تمسكه بتبعية شكلية للخلافة العباسية الواهنة ببغداد[3].

فقط قامت شهرة صلاح الدين بفضل انجازاته العسكرية العديدة ولعل أهمها معركة حطين التي حصلت سنة 582 هـ/1187م واسترداد بيت المقدس في نفس السنة وهذه الانجازات كانت الأساس الذي قامت عليه دولته التي كانت ذات طابع حربي كرست جميع مواردها للهدف العسكري وهو محاربة الصليبيين[4]، الذي كان مبرر لاستمراريتها لكن وفاة صلاح الدين أحدث فراغا سياسيا كبيرا فقد تقسمت دولته[5] في الحال بين أفراد أسرته الذين اقتسموا الحكم بمنطلق الوراثة الذي يهم كلا منهم الفوز بأكبر قدر من التركة دون أن يحفل بالمصير المشترك للجميع، فقد كانت هذه النتيجة المباشرة لهذا التفكك السياسي فقد انقسمت الدولة لعدة إمارات منفصلة ومتنازعة لتذهب جهود صلاح الدين للوراء لكن السلطان العادل

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص455.

(2) ابن الأثير، المصدر السابق، ص266، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، المصدر السابق، ص188،187.

(3) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص154.

(4) علي سعود عطية، المرجع السابق، ص336.

(5) المرجع نفسه، ص337.

استطاع فرض نوع من الوحدة على الأيوبيين في الشام وحتى مصر[1]، ورغم أنهم حافظوا على الحكم الأيوبي وسلموه إلى توران شاه بن صالح نجم الدين الأيوبي إلا أنه فشل في الإبقاء على الدولة الأيوبية، بدأت سلسلة المؤامرات انتهت بمصرع توران شاه على أيدي الأمراء الكبار والمماليك وهو آخر ملك أيوبي إلا أن الحكام الأيوبيين عن عروشهم في الإمارات بالشام لكن انتهى دورهم في واقع الحال إلى قيام الحرب ضد الفرنج[2].

ثم قام النظام العسكري المملوكي الذي كان مبني على أساس الإقطاعات التي اتخذت الطابع الشخصي والذي تغير بخروج الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر ميلادي لذلك لم تنجح الدولة المملوكية في التوفيق بين الظروف التاريخية الجديدة كونها مرت بمرحلة انتقالية لتبدأ رحلتها نحو التدهور في القرن الأخير من حياتها فقد كان الحصاد السياسي سلبا في نهاية الأمر[3].

فقد اقترنت جهود توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين بجهود أخرى لإعادة نشر المذهب السني، وتأسيس المدارس لتدعيم هذا المذهب في مواجهة الدولة الشيعية فكان فشل الخلافة الفاطمية الشيعية في فهم حقيقة الحركة الصليبية من جهة، ثم أخرى من أهم عوامل بروز الجهود السنية على محور الموصل حلب ثم جاءت نهاية الخلافة الفاطمية في خضم الصراع الإسلامي الصليبي تجسيدا للانتصار المذهب السني على منافسه الشيعي، وأسس صلاح الدين المدارس في بيت المقدس، الشام، القاهرة، الإسكندرية لتدعيم المذهب السني ومحاربة التشيع تم ذلك بتعريب علماء السنة[4].

كما كانت لديهم مهمات أخرى هي شحن روح الحماسة في نفوس المسلمين للدفاع عن بلادهم ودينهم ضد الصليبيين ومن أولئك العلماء السنة خرج أرباب الأقلام الذين كونوا الوظائف العليا في الدولة الأيوبية، وخرج القضاة والمدرسون الذين كانوا يعقدون حلقات

(1) ابن الأثير، المصدر السابق، ص189.

(2) المقريزي، السلوك، المصدر السابق، ص259، 260.

(3) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص164.

(4) ابن شداد، المصدر السابق، ص137، أبو شامة، المصدر السابق، ص217، 218.

دروسهم في أروقة المدارس السنية التي انتشرت في كل مكان وغالبا ما كانت الدولة تقربهم بسبب نفوذهم الواسع على عامة الناس[1]، وكان صلاح الدين الأيوبي نفسه شديد الكلف بعلوم الدين وكان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفواه أشهر العلماء[2].

خامسا: التأثيرات الدينية:

إذا أردنا معرفة الآثار الدينية للحروب الصليبية لابد من التطرق إلى الخارطة السياسية والمذهبية للمشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية فقد كانت الشام والعراق المناطق الأكثر استهدافا من قبل الصليبيين، فبلاد الشام كانت تعاني من حالة التشرذم السياسي والانقسام المذهبي نتيجة عدم وجود سياسة موحدة ولا ولاء عقائدي ثابت فقط تأرجحت بين الانتماء إلى بغداد المركز الرئيسي للخلافة السنية، والانتماء إلى القاهرة مركز الخلافة الشيعية الفاطمية[3]، ودليل ذلك وصف الشنقيطي حالة الشام عشية الحروب الصليبية فجاء في نص قوله: كانت هذه البلاد موزعة بين عدد من صغار الأمراء المتنافسين على صغار الأمور[4]، فتاريخيا كانت إمارة حلب عاصمة بلاد الشام تشهد استقرارا سياسيا ومذهبيا منذ القرن الرابع الهجري خلال هذه الفترة حكمت عدة أسر عربية من بينها الحمدانيون الراديسيون العقليون الذين كانوا ينتمون للمذهب التشيعي الإمامي[5]، وغيرها من الأسر فقد خضعت لسيطرة السلاجقة السنيين ذلك ابتداء من سنة 449هـ/1985م، وصولا إلى عهد رضوان بن تيتش الذي تولى السلطة عليها سنه 488هـ،1095م، الذي كان أول من مكن الفرقة الشيعية الإسماعيلية النزارية في المنطقة

(1) Nabih Amin Faris, "Arab cuture" , p12, 14.

(2) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص183.

(3) حمزة قادري، الصراع والتطرف المذهبي عند المسلمين بالمشرق الإسلامي آثاره على المقاومة ضد الصليبيين خلال القرنين 5 و6هـ، 11و 12م، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة قالمة، الجزائر، 2020،2021، ص84.

(4) محمد بن المختار الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2016، ص122.

(5)محمد حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان وسوريا والجزيرة في القرون الوسطى، دار بهاء الدين العاملي، تر: جعفر المهاجر، بعلبك، لبنان، 2013، ص268.

الشامية ودعمها لخدمة مصالحه السياسية والقضاء على خصومه في الإمارات المجاورة له مما أثر على زيادة التعقيد المذهبي والسياسي للإمارة ذلك قبيل الحملة الصليبية الأولى بسنتين[1].

أما بالحديث عن إمارة طرابلس فخلال الثلاثين سنة الأخيرة التي سبقت الحملة الصليبية الأولى على المشرق كانت الإمارة تتمتع بمستوى أعلى من الاستقرار السياسي والمذهبي، حكم بنو عمار الذين كانوا ينتمون إلى المذهب الشيعي الإمامي الذي كان ذاتيا لمده تزيد عن أربعين سنة ابتداء من عام 462هـ/1070م، بعدما تم إلغاء التبعية السياسية للفاطميين[2].

وبالنسبة لبلاد الشام ووسطها لا نجد دلائل تاريخية قاطعة عنها حتى وإن كانت الدلائل الموجودة تقر بوجود أغلبية شيعية، ودليل ذلك ما جاء به الرحالة ابن جبير عند زيارته لدمشق والمكوث فيها شهرين وبضعة أيام عندما كانت عاصمة حكم صلاح الدين الأيوبي وجاء في نص قوله: وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السنيين بها وقد عمروا البلاد بمذاهبهم[3].

أما العراق كانت تحت حكم الخلافة العباسية التي فقدت السلطة الفعلية على مقاليد الحكم لصالح القادة والسلاطين السلاجقة، فقد أفقد الخليفة العباسي دوره وبقيت سوى المكانة الدينية[4].

كما كان للعامل الصليبي أثره المزدوج توحيدا وتفرقة بين المسلمين، غير أننا سنركز في هذه الجزئية على تقارب السنة والشيعة الإمامية تحديدا وكيف استجابوا للتحدي الصليبي الذي جعلهم يدركون ما يجمعهم في النهاية، ودفعهم إلى التوحد سياسيا وعسكريا، وإلى القتال

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، المصدر السابق، ص142.

(2) عاصم إسماعيل نعمة شهاب، الدور السياسي والثقافي لبنو عمار في إمارة طرابلس، مجلة الفتح، ع26، العراق، 2006، ص251.

(3) ابن جبير، المصدر السابق، ص227.

(4) حازم حلاق، المرجع السابق، ص134.

في خندق واحد لبناء أمة واحدة لا كأتباع مذاهب وطوائف مختلفة، وقد كان من أسباب هذه الوحدة بين السنة والإمامية في وجه الصليبيين آنذاك ثلاثة أمور ذكرها وفصل فيها محمد الشنقيطي في كتابه أثر الحروب الصليبية على علاقات السنية والشيعة[1]، ولعل السبب الرئيسي للتعاضد السني الإمامي فهو سبب عملي، إذ كان من الأفضل لإمامية بلاد الشام أن يستمدوا الدعم ويطلبوا الحماية من الدولة السلجوقية السنية الصاعدة لا من الدولة الفاطمية الآفلة التي كانت تعيش يوم ذاك انحدار للقوة في أرض مصر وانحصار للنفوذ بلاد الشام، ثم أن المراكز الحضارية التي يحكمها السنة كانت أقرب إلى مراكز التشيع الإمامي في الشام، فطرابلس أقرب جغرافيا إلى دمشق منها إلى القاهرة وحلب قريبة نسبيا من الموصل وهي مركز ثقل القوة السنية، المنحى الذي ينضب بالمدد البشري من الجيوش السنية التركية والكردية[2].

ورغم ذلك فإن الوجود الفرنجي أصبح عامل توحيد بين الشيعة الإمامية في بلاد الشام أكثر من كونه عامل تفريق بينهما ويرجع ذلك إلى أن حصار طرابلس الطويل الذي قاده ريمون سنة 495هـ والذي دام حسب رواية ويليام الصوري سبع سنين، فقد بدل المزاج السياسي لأمراء الشام أدرك ابن عمار أن سعيه إلى كبس كسب ود الصليبيين أمر عبثي كما أدرك الآخرون أن الوقوف في وجه القوة الفرنجية ليس مستحيلا[3].

فحينما اضطر ابن عمار إلى طلب العون من جيرانه المسلمين لم يطلبه من الفاطميين الذين كانت إماراتهم تابعة لهم سابقا، وتجمعهم العقيدة الشيعية لكن طلبوه من القادة السنة في دمشق وحمص أولا، ثم بغداد فبعث ابن عمار رسائل استغاثة إلى أُمر دمشق وأمير حمص يطلب منهم المدد وينصحهم بالتحرك ضد ريمون قبل أن تترسخ قوته

(1) محمد بن المختار الشنقيطي، المرجع السابق، ص138، 139.

(2) المرجع نفسه، ص147.

(3) الشنقيطي، المرجع السابق، ص147

William of the tyre, Ahistiru of deedes Beyond the sea, V1, Iran Emily Atriater babcock, morning side heihts, New Yourk, 1943; p478.

في المنطقة[1]، فمن منظور العلاقات السنية التي تهمنا أن تعاون أمراء الشام والسنة والشيعة أول مرة ضد الفرنجة، رغم أن جيوش أولئك الأمراء كانت ضعيفة الأعداد وغير مهيئة للجهاد ولعل هذه بداية الانتقال من الأنانية السياسية والتمزق الذي صاحب الحملة الصليبية الأولى إلى والإحساس بالمصير المشترك[2]، إضافة إلى ما حصل في حلب سنة 503هـ أي بعد عشر سنين من سقوط القدس في الحملة الصليبية الأولى حيث استولى الصليبيون في أنطاكية على قلعة الأثارب قرب حلب، ثم على زردنا، فمنيج وبالس، وصيدا، وبلدان بلاد الشام كلها على وشك السقوط بأيديهم[3].

وعندما لم يكن أمراء الشام على قدر كافي من المسؤولية لمواجهة الخطر الدائم قاموا بالاستنجاد بالسلطان السلجوقي ملك شاه ببغداد والخليفة العباسي المستظهر ثم انضم إلى الوفد الحلبي العديد من فقهاء بغداد ودعموا مسعاهم فنظموا معهم ما يشبه الاعتصام الاحتجاجي بمسجد السلطان أولا، ثم بمسجد الخليفة في الجمعة التالية وفي سبيل الضغط على الخليفة والسلطان ودفعهما إلى أخذ محنة حلب مأخذ الجد، اقتحم المعتصمون مقصورة الخليفة بالمسجد وكسروا المنبر وأثاروا ضجة كبرى[4].

فيشير ابن قلانسي إلى أن رجلا من الأشراف منتسب إلى آل بيت النبي كان يقود الوفد مما يدل على أن أسره بني زهرة وهي عائلة من النبلاء الشيعة الإمامية في حلب كانت تحتكر التمثيل السياسي لآل البيت لدى حكام حلب لمدة قرون[5]، فبناء على أمر السلطان زحفت إلى الشام جيوش من الموصل وماردين وخلاط بقيادة مودود عام 505هـ بنية إنقاذ حلب وما تبقى من بلاد الشام من الفرنج لكنها فشلت في ردعهم فقد كان رضوان أمير حلب مرتابا في أي تدخل من جهاد بغداد، يمكن أن يجعله يخسر حكم حلب وتحكمت فيه الأنانية

(1) ابن الأثير، المصدر السابق ج8، ص473، 474.

(2) الشنقيطي، المرجع السابق، ص148.

(3) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 1 ص58.

(4) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص173، ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص141.

(5) ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص588.

السياسية فقد منع الجيوش من دخول حلب كما كان الأمير الدمشقي مرتابا في نية السلطان لذلك خاذل الجيوش السلطانية[1]، وفي سنة 507هـ ملك رضوان فغاصت حلب في الفراغ السياسي والفوضى العسكرية وأصبحت أكثر انكشافا أمام العدو الفرنجي ولم يضيع فرنجة أنطاكية الفرصة فزحفوا وحاصروا المدينة وفي هذه اللحظة الحرجة برز إلى الصدارة القاضي الشيعي الإمامي أبو الفضل بن الخشاب وقاد الجهود السياسية المظفرة التي انتهت بإنقاذ حلب[2].

وتجسدت صورة فقيه شيعي عربي من طرف جيش سني تركي والتي كانت ليست شائعة في التاريخ الإسلامي لكن تحققت في معركة سرمدا، كونه نجح السنة والشيعة الإمامية لبلاد الشام في تجاوز الخلافات الطائفية وهم يواجهون الخطر الوجودي الفرنجي فقد أعان هذا التلاحم الأمير إيلغازي على هزيمة الفرنج سنة 513هـ أي بعد 20 سنة من استيلائهم على القدس في هذه المعركة الحاسمة المعروفة باسم معركة سمردا وهي أول انتصارات المسلمين على الصليبيين[3].

(1) ابن الاثير ،المصدر السابق، ج 8، ص588

(2) أبو شامة المقدسي، الروضتين، المصدر السابق، ص249.

(3) الشنقيطي، المرجع السابق، ص 164.

الخاتمة

توصلت الدراسة في العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين واثارهما على بلاد الشام الى جملة من النتائج نذكرها كالتالي:

- مساهمة موقع بلاد الشام وثرواتها ومواقعها الدينية في زيادة طموح الصليبين نحو السيطرة عليها واستغلال مواردها.
- كانت الحروب الصليبية مدفوعة بمزيج من الدوافع الاقتصادية والدينية والسياسية والاجتماعية مما جعل الشام هدفا رئيسيا للطموحات الأوروبية في تلك الفترة .
- دور المعاملات المالية في تعزيز التفاعل الاقتصادي بين الشرق والغرب فقد سهلت التجارة وعززت الثقة بين التجار ووسعت التبادل الاقتصادي والثقافي بين الحضارات المختلفة .
- تسهيل المعاملات التجارية والتبادل الثقافي بين الشرق والغرب مما ساهم في تنمية اقتصادية متبادلة وعزز الروابط الثقافية والحضارية بين الحضارات المختلفة.
- ازدهار التجارة وتبادل الثقافات وتقدم تقنيات بين الحضارات المختلفة بفضل مناطق الحدود المشتركة التي ظهرت في فترة الحروب الصليبية.
- تداخل الاقتصاديات وتأثيرها على التغيرات الاجتماعية والثقافية في المنطقة كيف مهدت الطريق للتفاعلات الاقتصادية في العصور اللاحقة حيث جمعت بين التدمير والتحفيز الاقتصادي مما أدى الى تغيرات في أنماط اقتصادية واجتماعية في المنطقة.
- تأثر التطور الاقتصادي والاجتماعي في بلاد الشام بشكل كبير بالعلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين خلال فترة الحروب الصليبية فقد شهدت المنطقة تحسنا في البنية التحتية وتطويرا في الصناعات المحلية وزيادة في التنافسية الاقتصادية.
- نجاح هذه العلاقات في تعزيز الروابط بين الثقافات المتعددة وتحفيز التعاون الاقتصادي مما أسهم في تحقيق التطور الاقتصادي المنطقة.

- لم تكن التجارة مجرد تبادل للسلع والموارد بل شملت أيضا تبادل الثقافات والمعرفة مما عساهم في تعميق التفاهم بين الثقافات المختلفة وتقليل من الخلافات الثقافية مما أدى الى تقريب وجهات النظر وتخفيف التوتر ات بين الأطراف المتصارعة.
- تأثير التجارة وتبادل السلع الزراعية بين المسلمين والصليبين بشكل إيجابي على تطوير الزراعة في بلاد الشام عن طريق تحسين التقنيات وزيادة الإنتاجية وتنويع المحاصيل مما أدى الى تحسين الظروف الزراعية ورفع مستوى الرفاهية في المنطقة.
- مساهمة العلاقات الاقتصادية بين الطرفين في تطوير الإنتاج الصناعي المحلي مثل صناعة النسيج والأسلحة في بلاد الشام من خلال نقل التقنيات وتوسيع الأسواق وتبادل الموارد وتحفيز الابتكار.
- التأثير المتناقض للمصالح الاقتصادية في نشوب النزاعات والهدنة بين المسلمين والصليبين حيث يتسبب في تصاعد التوترات في بعض الأحيان لكنه يساهم في تحقيق السلام والتفاهم في حالات أخرى كون التجار والوسطاء كانوا أحيانا يتوسطون بين الطرفين لفض النزاع بطريقة سلمية .
- التأثير على العادات والتقاليد في بلاد الشام حيث تم تبادل الثقافات وعلى مختلف جوانب الحياة من مأكولات أزياء وحتى فنون العمارة .
- وبالحديث عن الجانب الفكري والثقافي فقد وجدت العديد من التداعيات على بلاد الشام ويظهر ذلك من خلال تبادل المعرفة والثقافة بين الطرفين مما أدى الى تطورات مهمة في فكر وعلم الفلسفة لكلا الحضارتين.
- ومن الناحية السياسية فقد كانت العديد من التداعيات الواسعة والمعقدة على بلاد الشام كونه حصلت تغيرات كبيرة في السلطة والنفوذ كما اثرت على التركيبة السياسية للمنطقة بشكل عميق ومستدام.

- تركت الحروب الصليبية اثار اجتماعية معقدة ومتعددة الابعاد على بلاد الشام تراوحت بين التدمير والتفاعل الثقافي أدت الى تغيرات كبيرة في النسيج الاجتماعي والثقافي للمنطقة.
- التأثير على الهوية الدينة والعلاقات بين الأديان والتفاعلات الدينية والفكرية بين الشرق والغرب.

الملاحق

الملحق رقم (1): يوضح العملات الصليبية المقلدة

الوجه **الظهر**

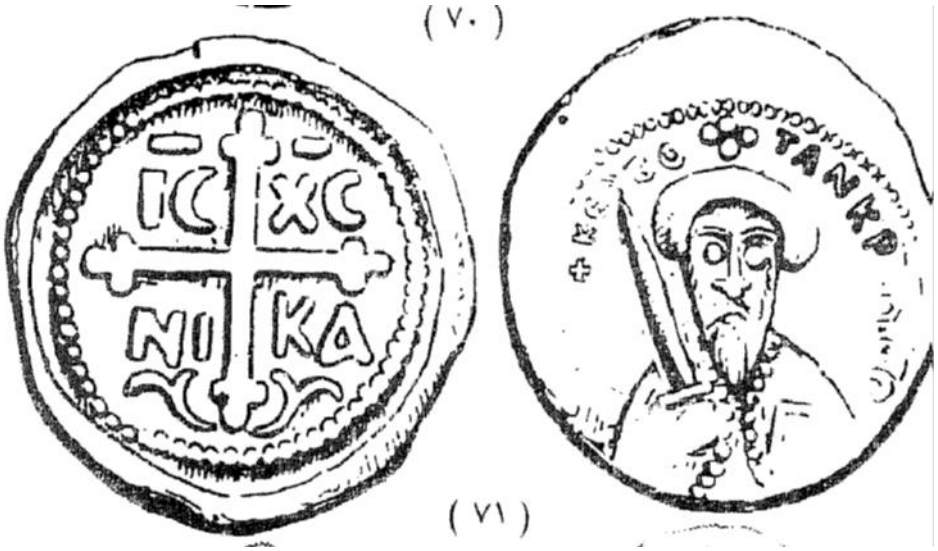

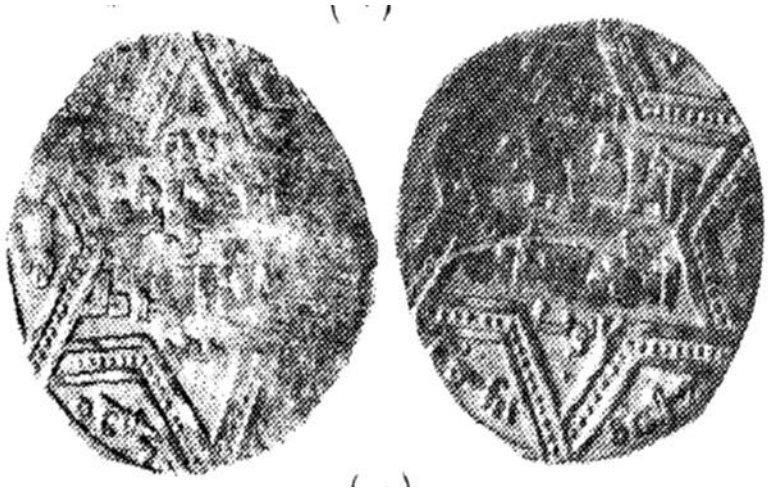

المصدر: النبراوي, المرجع السابق, ص314_298

الملحق رقم (2): نقود صليبية بأحرف عربية

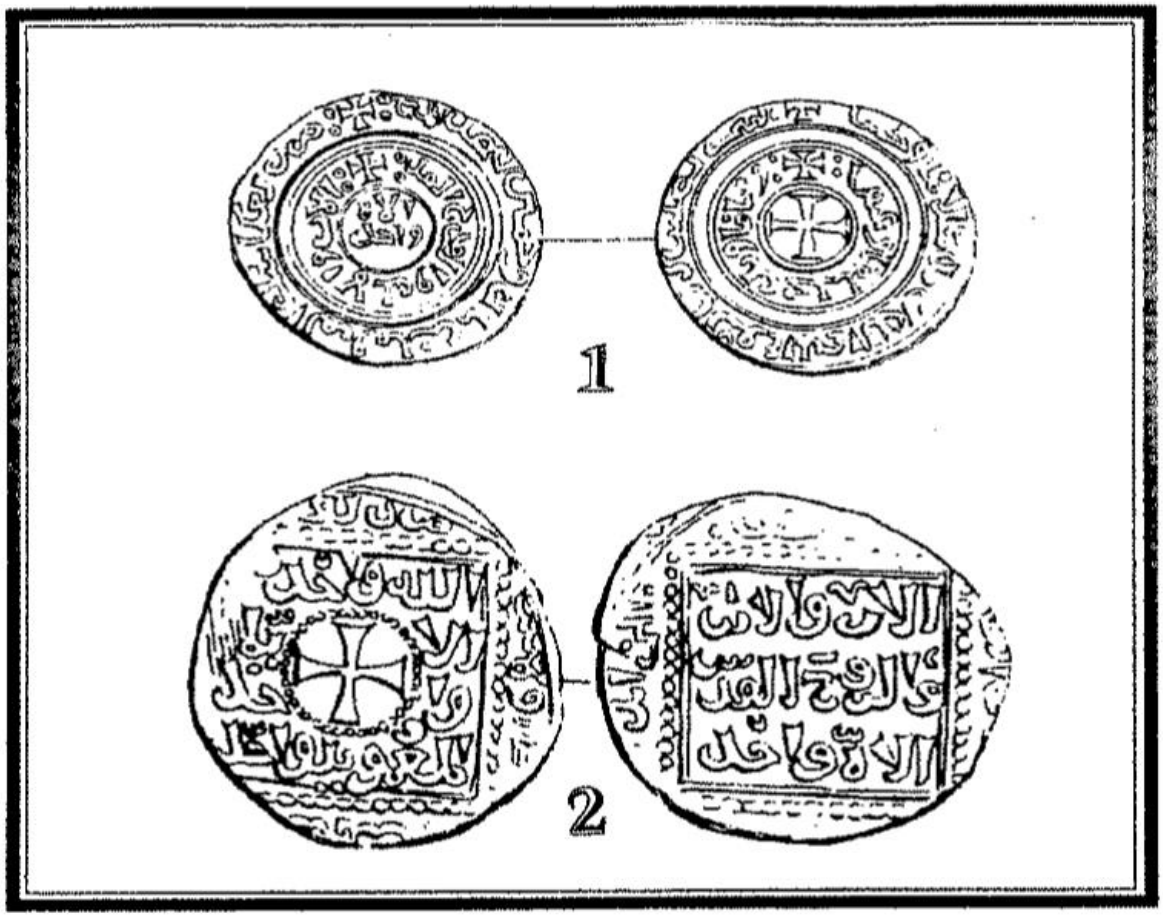

المصدر: الربيعي, المرجع السابق, ص201

الملحق رقم (3): خريطة توضح مسير الحرب الصليبية الأولى

المصدر: محمد المطوي, المرجع السابق, ص53

الملحق رقم (4):

صلاح الدين الأيوبي
بطل المشرق الإسلامي في الحروب الصليبية

المصدر: محمد المطوي, المرجع السابق, ص41

الملحق رقم (5):

المصدر: محمد المطوي, المرجع السابق, ص37

الملحق رقم (6):

المصدر: محمد المطوي, المرجع السابق, ص62

الملحق رقم (7): خريطة لأهم المدن في بلاد الشام

المصدر: شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، ط 5، دمشق، 1423هـ/2002م, ص86

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1. المصادر:

1. ابن الأثير، عزالدين أبي الحسن علي (ت: 630 هـ/ 1232 م)،الكامل في التاريخ، تح: خليل مؤمون شيعا، دار المعرفة، ط1، بيروت، 2004، ج1،ج 8،ج9
2. ابن القلانسي أبي يعلي حمزة (ت: 555 هـ/ 1160 م)،ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908.
3. ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبدالله محمد (ت 779 هـ/ 1377 م) ،تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، ط1، بيروت، 1407 هـ/1987م، ج1.
4. ابن تغري برديي (813 هـ – 874) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1935م.
5. ابن جبير، محمد بن أحمد (ت: 614 هـ/ 1217 م)،الرحلة المسماة تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1970.
6. ابن حوقل، آبي القاسم بن حوقل النصيبي (ت. 367 هـ/ 977 م) ،صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996.
7. ناصر خسرو علوي ، (ت: 481 هـ/ 1088 م) سفرنامة، ترجمة يحي الخشاب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج1
8. ابن خلكان، شمس الدين أبي العباس أحمد البرمكي (ت: 681 هـ/ 1281 م) ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج2.
9. ابن شداد،بهاء الدين أبي المحاسن يوسف (ت: 632 هـ/ 1234 م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح: جمال الدين الشيات، مكتبة القاهرة، ط2، 384هـ/1994م.
10. ابن طولون، إعلام الورى بمن ولى نائما من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح: عبد العظيم حامد خطاب، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، 1977م.
11. ابن ميسر، المنتقي من أخبار مصر، انتقاه: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تح: أيمن فؤاد سيد، المعهد العالي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة. (د. ت).

12. ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم واصل، (ت697هـ)،مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشر د. جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953، ج1، ص1953.
13. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (د. ت).
14. أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس، المحيط في اللغة، تح: الشيخ محمد حسين آل ياسين، عالم الكتب، ط1، بيروت، لبنان، 1994.
15. أبو بكر بن أحمد بن محمد بن قاضي شهبة (779-851هـ)، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تح: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، (د. ت).
16. أبو شامة شهاب الدين عبدالرحمن (ت: 695 هـ/ 1266 م)،الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1418هـ/ 1997م، ج1.
17. أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، سير الاعلام والنبلاء، ج17، ط11، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.
18. أبي البقاء عبد الله البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، ط1، بيروت، 1980.
19. أبي سعيد البرادعي، التهذيب في اختصار المدونة، ت: محمد الأمين ولد محمد سالم بن الشيخ، دار البحوث للدراسات الإسلامية والتراث، ط1، 1999م، ج2.
20. الأزهري، تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 2001م، ج4.
21. أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري ، (ت) المسالك والممالك، مطبعة ابريل ليدن 1927ج1.
22. البكري، المسالك والممالك، تح: جمال طلبة، دار الكتاب العلمية، ط1، لبنان، 1424هـ/2003م، ج1.
23. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (766-745هـ)، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، 1996.
24. الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (د. ت)، ج6.

25. الحموي، ياقوت شهاب الدين أبي عبدالله (ت: 626 هـ/ 1229 م)،معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1991م، ج4.
26. الحموي،ياقوت شهاب الدين ابي عبد الله ،معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م، ج1،ج3
27. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت)، ج1.
28. الحافظ شمس الدين محمد بن احمد الذهبي،(ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ، د. ب. ن)، (د. ت)، ج19.
29. الرازي الحاوي في الطب، تح: هيثم خليفة طعيمي، دار إحياء التراث العربي، ط1، لبنان، بيروت، 2002م، ج6.
30. السيوطي حسن، المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة إدارة الوطن، مصر، 1295م، ج1.
31. العسقلاني ابن حجر (ت: 852 هـ/ 1449 م)،انباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسين حبشي، مكتبة حيد آباد، الهند، 1908، ج2.
32. القلقشندي أبي العباس أحمد صبح الأعشى في صناعة الانشاء، دار الكتاب أحدوية، القاهرة، 1332هـ/1914م، ج4.
33. ، العليمي، مجيرالدين أبي اليمن القاضي الحنبلي (ت: 927 هـ/ 1520 م)، الإنس الجليل بتاريخ القدس والخيل، تح: عدنان يونس، مكتبة وندبس، عمان، 1999.
34. محي الدين بن عبد الظاهر (620-692هـ)، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور تح: مراد كمال، الشركة العربية لطباعة والنشر.
35. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار القطر، ط5، 1973، ج1.
36. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980م، ج1.

37. المقريزي تقي الدين أحمد (ت: 805 هـ/ 1402 م)،اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة للفاطميين الخلفا، تح: محمد علمي محمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971.ج1

38. النويري شهاب الدين أحمد النوري (ت: 732 هـ/ 1332 م)، نهاية الإرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، (د. ت).
39. اليعقوبي، البلدان، مطبعه بريل، ليدن المحروسة، 1890م.

المراجع العربية:

1. ابن طولون، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، مكتبة الدراسات الإسلامية، دمشق، قسم 1، 1949م.
2. أحد الآباء اليسوعين، مختصر تاريخ سوريا ولبنان، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، 1924م. ناقص معلومات
3. أديل سليمان محمود وهيبي وآخرون، العلاقات بين المسلمين والفرنج خلال فترة الحروب
4. أرنست باركر، الحروب الصليبية، دار النهضة، ط2، بيروت، (د. ت).
5. أسامة زكي زيد، صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، تق: جوزيف نسيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980م.
6. اسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة، الجامعية، الإسكندرية، 1990.
7. إلياس أبو شبكة، روابط الفكر والروح بين العرب والفرنج، دار المكشوف، بيروت، ط2، 1945.
8. بسام كرد علي، سوريا ولبنان جغرافيا، مكتبة العلوم والآداب، للطباعة والنشر، دمشق، 1949.
9. تيسير موسى، نظرة عربية على غزوات الإفرنج، دار النهضة العربية، بيروت، 1972.
10. جوزيف نسيم، العرب والروم اللاتين في الحروب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية، الإسكندرية، 1957م.
11. حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1999
12. حسنين بن محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، 1983م.

13. حسين عطوان، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموين دار الجيل، ط1، بيروت، 1987.
14. درويش النخيلي، فتح الفاطميين للشام، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1979م.
15. راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1368هـ/1968م.
16. رأفت محمد النبراوي، النقود الصليبية في الشام ومصر، مكتبة القاهرة للكتاب، القاهرة، 2001.
17. رمضان عبد العظيم، الصراع بين العرب وأوروبا منذ ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، 1993، ص138.
18. زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب
19. زكي محمد حسن، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، القاهرة، 1981.
20. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة،
21. السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مطابع رمسيس، الإسكندرية، 1967.
22. سيد علي الحريري، الحروب الصليبية وأسبابها ونتائجها، دار التضامن، بيروت، 1988.
23. صبحي لبيب، الفندقة ظاهرة سياسية، اقتصادية، قانونية، مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة، 1986.
24. عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، ط1، 1400هـ/1980م.
25. عبد الحافظ عبد الخالق البنا أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 1427هـ/2007م.
26. عبد الرحمن الجزيري، تاريخ الفقه على المذاهب الاربعة، مكتبة الحقيقة، الابول، 1970، ج3.

27. عبد الله الربيعي، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، مكتبة المصطفى، الرياض، 1994م.
28. عبد النعيم محمد حسنين، إيران والعراق في العصر السلجوقي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1402هـ/1982م.
29. عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، تر: فيليب صابر سيف، دار الثقافة، ط2.
30. عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب تجارية ثقافية صليبية، دار الثقافة، ط1، 1972م.
31. عطا الله أخضر أحمد، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، (د. ت).
32. عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983.
33. عفيف البهسني، الشام الحضارة دراسة تاريخية، وزارة الثقافة، ط1، دمشق، 1986.
34. علي سعود عطية، الحروب الصليبية، الشركة العربية المتحدة للتسويقات، ط1، القاهرة، 2010.
35. عمر توفيق، مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي، دار المعارف، القاهرة، 1997.
36. عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1986م.
37. عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبية، مؤسسة شباب الجامع، الإسكندرية، 1986.
38. عوض محمد مؤنس احمد، التنظيمات الدينية في عصر الحروب الصليبية، دار الجندي للنشر والتوزيع، ط1، 2012.
39. فهمي زكي نعيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973.
40. فيليب حتى وآخرون، تاريخ العرب، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ،1945، ج2.

41. ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ج1.
42. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (الإيديولوجية – الدوافع والنتائج)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1993م.
43. محمد بن المختار الشنقيطي، أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2016.
44. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، منشئة المعارف، الإسكندرية، 1990.
45. محمد كرد علي، خطط الشام، دمشق، 1343هـ/1925م، ج1، ص 219.
46. محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099–1187م، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 1992م.
47. محمد مؤنس أحمد عوض، في الصراع الإسلامي الصليبي (معركة أرصوف 1191م–587هـ)، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1، 1997م.
48. محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات الإنسانية بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث، ط1، 1999/ 2000م.
49. محمد مؤنس عوض، سندباد في عصر الحروب الصليبية، عند الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2022م.
50. مصطفى حسن محمد الكيلاني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي 1171–1291م/597–990هـ أضواء جديدة على الحركة الصليبية، تق: جوزيف نسيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م.
51. مصطفى حسين محمد الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى 1595–1171م/ 488–567هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981.
52. مصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية، مكتبة الإيمان، القاهرة، 1997.
53. مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ الحروب الصليبية الأسباب، الحملات، الآثار، دار سامة، ط1، الأردن، 2004.

54. نجد محمد عبد القادر عطا، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، قسم 2.
55. نجدت خماش، الشام في صدر الإسلام من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية (دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية)، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1987.
56. نظير حسان سعداوي، تاريخ الحرب المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1957.
57. نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، ط2، 2000/1999م.
58. نهى فتحي الجوهري، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري، دار العالم العربي، ط1، القاهرة، 2008م.
59. ويليام جيمس ديورانت، قصة الحضارة، تر زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، ج 14.

المراجع المعربة:

1. آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري أو عصر النهضة في الإسلام، تر: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5، (د. ت)، ج1.
2. براور يوشع، الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، تر: عبد الحافظ الينا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001.
3. بيبرس المنصوري الدوادر، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة عصر سلاطين المماليك، تر: زبيدة عطاء، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1970، ج9.
4. جوناثان رايلي سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، تر: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، القاهرة، 1999.
5. ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العربي، دار الثقافة، بيروت، 1997م، ج3.
6. فيليب حتى، لبنان في التاريخ، تر: أنيس فريحة، دار الثقافة، 1959.

7. كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تر: احمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، 1995م.
8. محمد حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان وسوريا والجزيرة في القرون الوسطى، دار بهاء الدين العاملي، تر: جعفر المهاجر، بعلبك، لبنان، 2013.
9. مكسيموس مرنوفد، من تاريخ الأرض المقدسة المدعوة حرب الصليب، تر: كبريو مكسيموس مظلوم، مطبعة الرهبان، القدس، 1840م، ج1، ص18.
10. مونتجومري وات، فضل الإسلام على الحضارة العربية، تر: حسين أحمد أمين، دار إشراق، ط1، بيروت، 1983.
11. ميخائيل زبوروف، الصليبيون في الشرق، تر: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1986م.
12. هنري بيرت، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى الحياة الاقتصادية والاجتماعية، تر: عطية القوسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996.
13. يوشع براور، عالم الصليبيين، تر: قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، دار المعارف، القاهرة، 1981.

المراجع الأجنبية:

1. cahen, Orient latin et Commerce du levant.
2. décervelle le roulex (1) : les Archives la Bibliothèque la tresse De London de Saint. Jean de Jerusalem Malee, Pais, 1883
3. d. Murray : Syria and palatine, London 1858, vol. I.
4. em "crournement in Latin Syria". Painter. S, Weston Europe on the eve of the Crusades. "in setton, vol.
5. Felix Fabrig, the Book of the wandering of felix Fabri, London, 1892, Vol II.
6. Heyd,(W) Histoir Du Commerce Du Levant Au ,MOYAN Age ,Leipzing,1936,opI.
7. Hitti, Ph, the Impact of the Crusades on Muslim Leders, kn Setton (ed), Vol,v.
8. Lopez, Médiéval Trade in the mediteriean world, new York, 1961.
9. L. A/ Z. O e : the crusades New York, 1960
10. Nabih Amin Faris, Arab culture in the Twelfth,, century in Setton, v. William of the tyre, Ahistiru of deeds Beyond the sea, V1, Iran Emily Atriater babcock, morning side heihts, New Yourk, 1943.

11.Paul E ,Walker (28_02_2021) Saladin ,Britannica ,Retrived
12.Prawer : the Settlement of the latin mi Jerusalem « Speculum » XXVII
13.Rey Emmanuel:Colonic frques en Syri Aux Xiime Siecles, paris, 1883.
14.Riley Smith : the feudal Nability and the Kingdon of Jeresalem, 74, 277, London, 1973.
15.Richard : le Rayanme latin de jerusalesalem, paris, 1995
16.Smith: Some lesser Officials in latin Syria "E.H.R"/ (1972
17.Smith, the Feudal Nobility. Id
18.William of tyre :History of the Deeds Done Byond The Sea ,New York Colombia Univ ,Press 1943. Vol. II.
19.Ziada, Urban Life in Syria.

المذكرات والمقالات والدوريات:

1. اديل سليمان محمود وهيبي واخرون ,العلاقات بين المسلمين والفرنج خلال فترة الحروب الصليبية ,مجلة كلية التربية ,جامعة الازهر ، ع168، ج4، ابريل، 2016.
2. ثامر مكي علي، محاضرات التاريخ الحضاري للعصور الوسطى الأوروبية المرحلة الأولى، المحاضرة التاسعة: الإقطاع، قسم التاريخ، الجامعة المستنصرية، 2019.
3. حازم أحمد سليم الحلاق، الأوضاع الاجتماعية والعلمية والدينية والاقتصادية والسياسية للمشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية (345-490هـ/945-1097م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب، قسم التاريخ، الجامعة الإسلامية غزة، 1436هـ-2014م.
4. حسين عطية، المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، مج27، ع2، 1999.
5. حمزة قادري، الصراع والتطرف المذهبي عند المسلمين بالمشرق الإسلامي آثاره على المقاومة ضد الصليبيين خلال القرنين 5 و6هـ، 11و 12م، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة قالمة، الجزائر، 2020،2021.
6. رشاعبد الفتاح محمد حسين ،الآثار الاجتماعية للحروب الصليبية ،دراسة على
7. مجتمعات بلاد الشام ،ماجستير ،جامعة الزقازيق ،مصر ، 1168 هـ- 6002 م.

8. رحمة رواق، الزواج في المجتمع الصليبي في بلاد الشام دراسة من خلال النصوص العربية (491-583هـ/1096-1187م)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مج7، ع4، الوادي، 2022.

9. الزبيدي، الاستيطان الصليبي في بلاد الشام مملكة بيت المقدس نموذجا (492-583 هـ/1099-1187م)، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1426هـ/2005م.

10. عاصم إسماعيل نعمة شهاب، الدور السياسي والثقافي لبنو عمار في إمارة طرابلس، مجلة الفتح، ع26، العراق، 2006.

11. علي محمد علي عودة الغامدي، بلاد الشام قبل الغزو الصليبي 643 - 491هـ/1070- 1098م، مذكره لنيل شهادة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1402هـ/1982م.

12. محمود محمد الحريري، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، دار المعارف، ط1، القاهرة.

13. وفاء جوني، الحياة الإدارية والسياسية في الإمارات الفرنجية الصليبية في بلاد الشام، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، 1041هـ/1919م.

فهرس المحتويات

الشكر والتقدير

الاهداء

مقدمة.....أ- ز

الفصل الأول: بلاد الشام وأوروبا قبيل الحروب الصليبية

أولا: الموقع الجغرافي لبلاد الشام وحدوده..... 09

ثانيا: أوضاع الشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية..... 11

ثالثا: الغرب الأوروبي قبيل الحروب الصليبية..... 19

الفصل الثاني التفاعل الاقتصادي بين الشرق والغرب الأوروبي

أولا: المعاملات المالية..... 27

ثانيا: المنشآت الخدمية 33

ثالثا: المناطق الحدودية المشتركة 44

الفصل الثالث: تداعيات الحروب الصليبية على بلاد الشام

أولا: التأثيرات الاقتصادية..... 66

ثانيا: التأثيرات الاجتماعية..... 87

ثالثا: التأثيرات الفكرية والثقافية..... 92

رابعا: التأثيرات السياسية..... 96

خامسا: التأثيرات الدينية 101

خاتمة 107

الملاحق 111

قائمة المصادر والمراجع..... 119

الملخص

الملخص:

تعتبر الحروب الصليبية سلسلة من الصراعات العسكرية التي استمرت على مدى عدة قرون بين المسلمين والصليبين ،من اجل السيطرة على الأراضي المقدسة ومناطق أخرى في الشرق الأوسط ،فتكونت علاقات اقتصادية بين الطرفين تنوعت بين التعاون والتنافس والتصادم في بعض الأحيان فشهدت المناطق المتأثرة تبادلا تجاريا نشطا يشمل السلع الفاخرة والغذائية والمنتجات الصناعية ،كانت بلاد الشام محورا للتجارة بين الشرق والغرب مما أدى الى ازدهار الاقتصاد المحلي وتنوع مصادر الدخل ،ورغم هذا فقد كانت هناك أيضا تحديات وتوترات اقتصادية نتيجة التنافس على الموارد والسيطرة على الطرق التجارية ، كما شهدت العلاقات تأثيرات على البنية التحتية والصناعات المحلية والتجارة مما اثر على مستوى المعيشة والظروف الاقتصادية للسكان في المنطقة.

Abstract:

The Crusades are considered as series of military conflicts that continued over several centuries between Muslims and the Crusaders in order to control the Holy Lands and other regions in the Middle East. Economic relations were formed between the two parties, which varied between cooperation, competition, and conflict at times. The affected regions witnessed an active trade exchange that included goods. Luxury, food, and industrial products. The Levant was a hub for trade between East and West, which led to the prosperity of the local economy and the diversification of sources of income. Despite this, there were also challenges and economic tensions as a result of competition over resources and control of trade routes. Relations also witnessed impacts on infrastructure, local industries, and trade. On the standard of living and economic conditions of the population in the region